

عبد الرحمن الكواكبي

طبائع الاستبداد

ومصاعع الاستعباد

وهي كلمات حق وصيحة في واد ،
ان ذهبت اليوم مع الريح ،
لقد تذهب غداً بالآوتاد ...

طبعة جديدة
منقحة ومضافة بقلم المؤلف

السيد عبد الرحمن الكواكبي

١٢٦٥ - ١٣٢٠ هـ = ١٨٤٨ - ١٩٠٢ م

بقلم فقيه الادب الدكتور احمد امين ، نقل عن كتابه

(زعماء الاصلاح في العصر الحديث)

من بيت في حلب يمتاز بنسبه وحسبه وعلمه وجاهه وماله ، فاسرة الكواكبي كانت فيها نقابة الاشراف في حلب ، ولها مدرسة تسمى المدرسة الكواكبية ، وابوه احد المدرسين في الجامع الاموي بحلب والمدرسة الكواكبية فيها .

تعاون على تربيته بيته وما في تقاليد من عزة وابهاء وشمم وانفة من الصغار ، وخالة له تمهده بعد وفاة والدته وهو صغير ، وكانت من نوادر النساء في الشرق ، عرفت بالادب والكياسة وكبر العقل . فطرته التي فطر عليها ميل الى الحق ، وحب الخير ، والاستجابة للتربية الصالحة .

كل هذا جعل منه رجلا يستعصى على ناقص الاخلاق نفسه ، مؤدب

اللسان فلا تؤخذ عليه هفوة ، يزن الكلمة قبل ان ينطق بها وزناً دقيقاً ، حتى لو اتى عليه السلام لفكر في الاجابة؛ مترن في حديثه ، اذا قاطعه احد سكت وانتظر حتى يتم حديثه ، ثم يصل ما انقطع من كلامه ، فيؤدب بذلك حديثه ، نزيه النفس لا يحدعها مطمع ولا يغيرها منصب ، شجاع فيما يقول ويفعل ، مهاجرت عليه شجاعته من سجن وضياع مال وتسرید ، وهو - مع انفته وعزته وصلفه على الكبراء - متواضع للبايسين وللفقراء ، يقف دائماً بجانب الضعفاء يشع على من يجالسه الازان والتفكير الهادى ، وحب الحق ونصرة المبدأ ، والتضحية للفضيلة .

تعلم كما كان يتعلم ناشئة زمانه الدينيون ، لغة عربية ودين في مدرسة اسرته بحلب - « المدرسة الكواكبية » - وكانت مدرسة تسير على الطريقة الازهرية فيما يقرأ من كتب ، وما يتبع من منهج ، ولكنه اكمل نفسه بقراءته ببعض العلوم الرياضية والطبيعية ، واحضر له والده من علمه الفارسية والتركية ، وطالع بنفسه كثيراً من الكتب التاريخية ، وعنى بدراسة قوانين الدولة العثمانية .

فلما اتم دراسته انغمس في الحياة العملية ، وتوعدت اعماله ، وتباينت اتجاهاته فمن محرر جريدة رسمية الى رئيس كتاب المحكمة الشرعية ، الى قاض شرعي في بلدة من البلاد السورية ، الى رئيس البلدية . ثم هو بين الحين والحين يعتزل الوظائف الحكومية فينشئ لنفسه جريدة في (حلب) اسمها « الشباب » او يشتغل بالاعمال التجارية ، او يقوم بمشروعات عمرانية ، ومن كل ذلك يستفيد خبرة وتجربة بالحياة . وفي كل الاعمال الحكومية والحرة يصطدم

بنظام الدولة ، وباستبداد الحكام ، وفساد رجال الادارة ، فينازلهم وينازلونه ويحاربهم ويحاربونه ، وينتصر عليهم حيناً ، وينتصرون عليه حيناً ، وسلاحه دائماً النزاهة والعدل والاستقامة ، وسلاحهم دائماً الدسائس واتهامه بخروجه على النظام ، ودعوته للشغب ، وما شاكل ذلك مما هو عادة الظالمين . وكانت البلاد التي يعيش فيها موبوءة بحكم « عبد الحميد » لا يستطيع ان يعيش فيها حر صريح ، ولا ينجح فيها تاجر نزيه ، ولا موظف جرى مستقيم ، وهذا النوع من الحكم عدو كل كفاية ، وقاتل كل نبوغ .

ارتفع شأنه في بلده ، فكان يقصده اصحاب الحاجات لقضاءها ، والمشاكل حلها ، ورجال الحكومة انفسهم يستشيرونه فيما غمض عليهم ، وهو في كل ذلك جريء فيما يقول ، لا يقر ظالماً على ظلمه ، ولا يسلم جائراً لمنصبه اوجاهه من اجل هذا غاضب (عارف باشا) والي حلب واخذ يمدد سيئاته وينقم عليه تصرفاته ويحرض الناس على رفع صوتهم بالشكوى منه لرؤسائه في الآستانة ، فانتقم (عارف باشا) لنفسه ، فزور على (الكواكي) اوراقاً ، واتهمه بانه يسعى لتسليم (حلب) لدولة اجنبية ، وحبسه وطلب محاكمته ، فبذل الكواكي ورجاله جهداً كبيراً ليحاكم في ولاية غير ولاية « حلب » . وحوكم في بيروت فحكم ببراءته ، وظهرت خيانة الوالي ومكايده فعزل .

وكان من اعداء « الكواكي » ايضا « ابوالهدى الصيادي » الذي سبق وصفه في ترجمة « عبد الله نديم » لان « الكواكي » ابي الاعتراف بصحة نسبه . ولاعتداء « ابى الهدى » على بيتهم بأخذ نقابة الاشراف لنفسه منهم ،

فكان « ابو الهدى » ايضاً يدرس له ، ويغرى ولاء الامر به .

فكان من نتيجة محادثته على التهمة التي اتهمه بها « عارف باشا » ومن مما كسبه « ابي الهدى » واعوانه له حتى في تجارته ، ان خسر الوف الجنيهات من ماله ، فاحتمل ذلك بنفس قوية لاتبجزع ولا تتحول .

وانصع صفحة في تاريخ حياته قسوة شعوره بفساد حال المسلمين ، وتخصيص جزء كبير من حياته في تعرف احوالهم في جميع اقطار الارض وتشخيص امراضهم وتلخيص العلاج لهم . فعكف على مطالعة تاريخهم في ماضيهم وحاضرهم ، وما كتبه الكتاب المحدثون في ذلك في الكتب والمجلات والجرائد ، ودرس احوال المسلمين في المملكة العثمانية . ثم رحلته الى كثير من بلاد المسلمين ، فساح في سواحل افريقية الشرقية ، وسواحل آسية الغربية ، ودخل بلاد العرب وجال فيها ، واجتمع برؤساء قبائلها ، ونزل بالهند وعرف حالها ، وفي كل بلد ينزلها يدرس حالتها الاجتماعية والاقتصادية وحالتها الزراعية ، ونوع تربتها وما فيها من معادن ونحو ذلك ، دراسة دقيقة عميقة . ونزل مصر واقام بها ، وكان في نيته رحلة اخرى الى بلاد المغرب يتم فيها دراسته ولكنه عاجلته منيته .

نشر نتيجة دراسته في مقالات كتبت في المجلات والجرائد ، ثم جمعت في كتابين : اسم احدهما « طبائع الاستبداد » ، والآخر « ام القرى » : الاول في نقد الحكومات الاسلامية ، والثاني اغلبه في نقد الشعوب الاسلامية .

لقد كان الحديث في مثل هذه الموضوعات التي مسها « الكواكبي » في « طبائع الاستبداد » و « ام القرى » من الموضوعات المحرمة ، لانها تمس نظام الحكم من قريب ، وتقهم الشعوب حقوقهم وواجباتهم ، وتقهم على مناجي الظلم والعدل ، وتميئهم للمطالبة بالحقوق اذا سلبت ، والقيام بالواجبات اذا اهلكت ، وهذا ابغض شيء لدى الحاكم المستبد . لذلك رأينا الشرق من بعد ابن خلدون اغلق هذا الباب ، ولم يفتحه ابي باحث بعده وصار كتاب ابن خلدون مقدمة بلانتيجة . والعلوم التي حوفظ عليها واستمرت دراستها ، هي علوم النحو والصرف واللغة والفقه ، لانها لا تمس الحاكم من قريب ولا بعيد ، ولا تقهم الناس اين هم من حاكمهم واين حاكمهم منهم . والادب مداح للملوك والحكام ، يجعل ظلمهم عدلا وفسادهم صلاحا ، فاذا اعطاهم الحاكم قابلاً بما سلبه من امتهم هالوا وكبروا ، وعجبوا من كرمه الخاطي ، وسخائه الذي لانظير له ، والمؤرخون لا يؤرخون الا شخصه في حياته واعماله وحرابه وزوجاته واولاده ، اما الشعب فلا شيء الا ان يكون مزرعة للحكام . واحب علم الى الحكام المستبدين وادعاهم لنصرته هو ما لا يتصل بالحكم ونظامه ، ورجال الدين المقربون هم الذين يدعون الى التسليم بالقضاء والقدر ، ويستطيعون ان يولدوا المعاني من مثل « السلطان ظل الله في ارضه » . اما علم الاجتماع وعلم السياسة والاقتصاد فلم يعرفه الشرق بعد ابن خلدون بتاتا .

كان هذا في الشرق ، على حين ان الغربيين بدأوا بعد ابن خلدون يبحثون في المجتمعات بحثا واسعاً ، يتعرفون علل الجماعات وامراضها وانواع

الحكومات ومزايا كل شكل وعيوبه ، ويتحررون من القيود ، ولا يعبثون بالتضحيات في سبيل الحريات ، وينبغي لاحقهم على ما وصل اليه سابقهم .

وبلغ الضيق في الشرق منتهاه في عهد السلطان عبد الحميد ، ولكن شدة

الضغط تولد الانفجار ، والقسوة تفتق الخيلة وتوالى الاضطهاد يولد البغضاء ،

فكثرت في هذا العهد الجماعات السرية تعمل لتحرير البلاد العثمانية من الظلم ،

وتعمل لوضع نظام ديموقراطي لا يكون فيه السلطان الحاكم بامرهم ، وفر

كثير من العثمانيين الى اوروبا يدرسون نظم الحكم الاوروبي وما وصلت اليه

اوروبة من البحوث الاجتماعية ، واخذوا يكتبون ذلك في جرائدهم ومجلاتهم

التي يحررونها خارج الحدود العثمانية ، ومنها تسرب الى البلاد نفسها .

واخذت مصر بعد انفصالها من حكم العثمانيين تؤوي الاحرار ، وتؤيد القول

في نقد نظام الحكم ، وظهرت في الجرائد والمجلات مقالات بالعربية في تشريح

احوال الجماعات واصول الحكومات ، وترجم الى العربية « اصول النواميس

والشرائع » لمنتسكيو . وبدأت موجات البحث الاجتماعي في اوروبا تصل الى

الشرق من طريق الترجمة وطريق المثقفين في اوروبة .

في هذا الوسط طلع الكواكبي ، وكان ظهوره بكتابه جرأة كبيرة .

لقد استفاد مما نقل عن الغرب ، ولم يكن يعرف لغة اوروبية ، انما يعرف

العربية والتركية والفارسية ، فاستفاد مما نقل ، ليها ، وبما كان يترجم له في

هذا الباب خاصة . وقد ظهر اثر هذا الاقتباس في كتابه « طبائع الاستبداد »

اما كتابه « ام القرى » فبحث مبتكر يدل على كبر عقله ، وقوة تفكيره ،

وسعة اطلاعه ، وصدق غيرته على العالم الاسلامي .

بسم الله الرحمن الرحيم



الحمد لله خالق الكون على نظام محكم متين ، والصلاة والسلام على انبيائه
العظام هداة الامم الى الحق المبين ، لاسبابهم على النبي العربي الذي ارسله
رحمة للعالمين ليرقي بهم معاشا ومعادا على سلم الحكمة الى عليين .

اقول وانا مسلم عربي مضطر للاكتتام شأن الضعيف الصادع بالامر ،
المعلن رأيه تحت سماء الشرق ، الراجي اكتفاء المطالعين بالقول عمن قال
وتعرف الحق في ذاته لابلرجال ، اني في سنة ثمانى عشر وثلاثمائة والف
هجرية هجرت ديارى سرحا في الشرق ، فزرت مصر واتخذتها لي مركزا
ارجع اليه مغتتما عهد الحرية فيها على عهد عزيزها حضرة سمي عم النبي
(العباس الثاني) الناشر لواء الامن على اكناف ملكه ، فوجدت افكار سرارة
القوم في مصر كما هي في سائر الشرق خائضة عباب البحث في المسألة الكبرى
اعني المسألة الاجتماعية في الشرق عموما وفي المسلمين خصوصا ، اعلم
كسائر الباحثين كل يذهب مذهبا في سبب الانحطاط وفي ماهو الدواء .
وحيث اني قد تمحص عندي ان اصل هذا الداء هو الاستبداد السياسي
ودواؤه دفعه بالشورى الدستورية .

وقد استقر فكري على ذلك - كما ان لكل نبا مستقر - بعد بحث ثلاثين

عاما... بحثا اظنه كاد يشمل كل ما يخطر على البال من سبب يتوهم فيه الباحث عند النظرة الاولى ، انه ظفر باصل الداء او باهم اصوله ، ولكن لا يلبث ان يكشف له التدقيق انه لم يظفر بشيء . او ان ذلك فرع لاصل ، او هو نتيجة لا وسيلة .

فالقائل مثلا : ان اصل الداء التهاون في الدين ، لا يلبث ان يقف حائراً عندما يسائل نفسه لماذا تهاون الناس في الدين ؟ والقائل : ان الداء اختلاف الاراء ، يقف مهوتاً عند تعليل سبب الاختلاف . فان قال سببه الجهل ، يشكل عليه وجود الاختلاف بين العلماء بصورة اقوى واشد .. وهكذا يجد نفسه في حلقة مفرغة لا مبدأ لها فيرجع الى القول : هذا ما يريد الله بخلقه ، غير مكترث بمنازعة عقله ودينه له بان الله حكيم عادل رحيم

واني اراحة لفكر المطالعين اعدد لهم الباحث التي طالما اتعبت نفسي في تحليلها وخطرت حتى بحياتي في درسها وتدقيقها ، وبذلك يعلمون اني ما وافقت على الرأي القائل بان اصل الداء هو الاستبداد السياسي الا بعد عناء طويل يرجح اني قد اصبحت الغرض . وارجو الله ان يجعل حسن نيتي شفيع سيئاتي ، وهاهي المباحث :

في زيارتي هذه لمصر ، نشرت في اشهر جرائدها بعض مقالات سياسية تحت عنوانات الاستبداد ، ماهو الاستبداد وما تأثيره على الدين ، على العلم ، على التربية ، على الاخلاق ، على المجد ، على المال . . الى غير ذلك .

ثم في زيارتي مصر ثانية اجبت تكليف بعض الشيعة ، فوسعت تلك
المباحث خصوصاً في الاجتماعيات كالترية والاخلاق وازفت اليها طرائق
التخلص من الاستبداد ، ونشرت ذلك في كتاب سميت (طبائع الاستبداد
ومصارع الاستعباد) وجعلته هدية مني للناشئة العربية المباركة الالابية المعقودة
آمال الامة بيمن نواصيهم . ولا غرو فلا شباب الا بالشباب .

ثم في زيارتي هذه وهي الثالثة ، وجدت الكتاب قد نفذ في برهة قليلة
فاحسب ان اعيد النظر فيه وازيده زيذا مما درسته فضبطته ، او ما اقتبسته
وطبقته . وقد صرفت في هذا السبيل عمرا عزيزاً وعناء غير قليل . . . وانا
لا اقصد في مباحثي ظالماً بعينه ولا حكومة او امة مخصصة ، انما اردت بيان
طبائع الاستبداد وما يفعل ، وتشخيص مصارع الاستعباد وما يقضيه ويمضيه
على ذويه . . . ولي هناك قصد آخر وهو التنبيه لمورد الداء الدفين ، عسى يعرف
الذين قضوا نحبهم ، انهم هم المتسببون لما حل بهم ، فلا يعبثون على الاغيار
ولا على الاقدار ، انما يعبثون على الجهل وقد الهمم والتواكل . . . عسى الذين
فيهم بقية رمق من الحياة يستدركون شأنهم قبل المات . . .

وقد تخيرت في الانشاء اسلوب الاقتضاب وهو الاسلوب السهل المفيد
الذي يختاره كتاب سائر اللغات ابتعاداً عن قيود التعقيد وسلاسل التاصيل
والتفريع . هذا واني اخالف اولئك المؤلفين ، فلا اتحنى العفو عن الزلل ،
انما اقول :

هذا جهدي ، وللناقد الفاضل ان يأتي قومه بخير منه . فما انا الا فاتح
باب صنير من اسوار الاستبـداد . عسى الزمان يوسعه ، والله ولي
المهتدين .

١٩٠٢ - ١٣٢٠

عبد الرحمن الكواكبي

مقدمة

لاخفاء ان السياسة علم واسع جداً يتفرع الى فنون كثيرة ومباحث دقيقة شتى . وكلما يوجد انسان يحيط بهذا العلم ، كما انه قلما يوجد انسان لا يتحكك فيه .

وقد وجد في كل الامم المترقية علماء سياسيون تكلموا في فنون السياسة ومباحثها استطراداً في مدونات الاديان والحقوق والتاريخ والاخلاق والادب . ولا تعرف للاقدمين كتب مخصوصة في السياسة لغير مؤسسي الجمهوريات في الرومان واليونان ، وانما لبعضهم مؤلفات سياسية اخلاقية ككليلا ودمنة ورسائل غوريجوريوس ومحررات سياسية دينية كنهج البلاغة وكتاب الخراج .

واما في القرون المتوسطة فلا تؤثر ابحاث مفصلة في هذا الفن لغير علماء الاسلام ؛ فهم القوا فيه ممزوجاً بالاخلاق كالرازي والطوسي والغزالي والعلائي وهي طريقة الفرس ، وممزوجاً بالادب كالمعري والمتنبي وهي طريقة العرب ، وممزوجاً بالتاريخ كابن خلدون وابن بطوطة وهي طريقة المغاربة . اما المتأخرون من اهل اوربا ثم اميركا فقد توسعوا في هذا العلم والقوا

فيه كثيرا واشبعوه تفصيلا حتى أنهم افردوا بعض مباحثه في التأليف بجلدات ضخمة، وقد ميزوا مباحثه الى سياسة عمومية ، وسياسة خارجية ، وسياسة ادارية ، وسياسة اقتصادية ، وسياسة حقوقية الخ. وقسموا كلا منها الى ابواب شتى واصول وفروع .

واما المتأخرون من الشرقيين ، فقد وجد من الترك كثيرون الفواحي اكثر مباحثه تأليف مستقلة وممزوجة مثل احمد جودة باشا ، وكال بك ، وسليمان باشا ، وحسن فهمي باشا ، والمؤلفون من العرب قليلون ومقلون ، والذين يستحقون الذكر منهم فيما نعلم رفاعة بك ، وخير الدين باشا التونسي واحمد فارس ، وسليم البستاني ، والمبعوث المدني .

ولكن يظهر لنا الان ان المحررين السياسيين من العرب قد كثروا ، بدليل ما يظهر من منشوراتهم في الجرائد والمجلات في مواضيع كثيرة . ولهذا الاح لهذا الما جز ان اذكر حضراتهم على لسان بعض الجرائد العربية بموضوع هو اهم المباحث السياسية ، وقل من طرق بابهم الى الآن . فادعوهم الى ميدان المسابقة في خير خدمة يترون بها افكار اخوانهم الشرقيين ، وينهونهم لاسيا العرب منهم لما هم عنه غافلون ، فيفيدونهم بالبحث والتعليل وضرب الامثال والتحليل ما هو (داء الشرق وما دواؤه) ؟

ولما كان تعريف علم السياسة بانه هو « ادارة الشؤون المشتركة بمقتضى الحكمة » يكون بالطبع اول مباحث السياسة واهمها بحث (الاستبداد) اي التصرف في الشؤون المشتركة بمقتضى الهوى .

واني ارى ان المتكلم في الاستبداد عليه ان يلاحظ تعريف وتشخيص
« ماهو الاستبداد ؟ ماسببه ؟ ماعراضه ؟ ماسيره ؟ ماانذاره ؟ مادواؤه ؟ »
وكل موضوع من ذلك يتحمل تفصيلات كثيرة وينطوى على مباحث شتى
من امهاتها : ماهي طبائع الاستبداد ؟ لماذا يكون المستبد شديد الخوف ؟
لماذا يستولى الجبن على رعية المستبد ؟ ما تأثير الاستبداد على الدين ؟ على العلم ،
على الجهد ، على المال ، على الاخلاق . على الترقى ، على التربية ، على العمران ؟
من عم اعوان المستبد ؟ هل يتحمل الاستبداد ؟ كيف يكون التخلص
من الاستبداد ؟ بماذا ينبغي استبدال الاستبداد ؟ .

قبل الخوض في هذه المسائل يمكننا ان نشير الى النتائج التي تستقر
عندها افكار الباحثين في هذا الموضوع وهي نتائج متحدة المدلول مختلفة
التعبير على حسب اختلاف المشارب والانظار في الباحثين وهي :

يقول المادي : الداء القوة والدواء المقاومة .

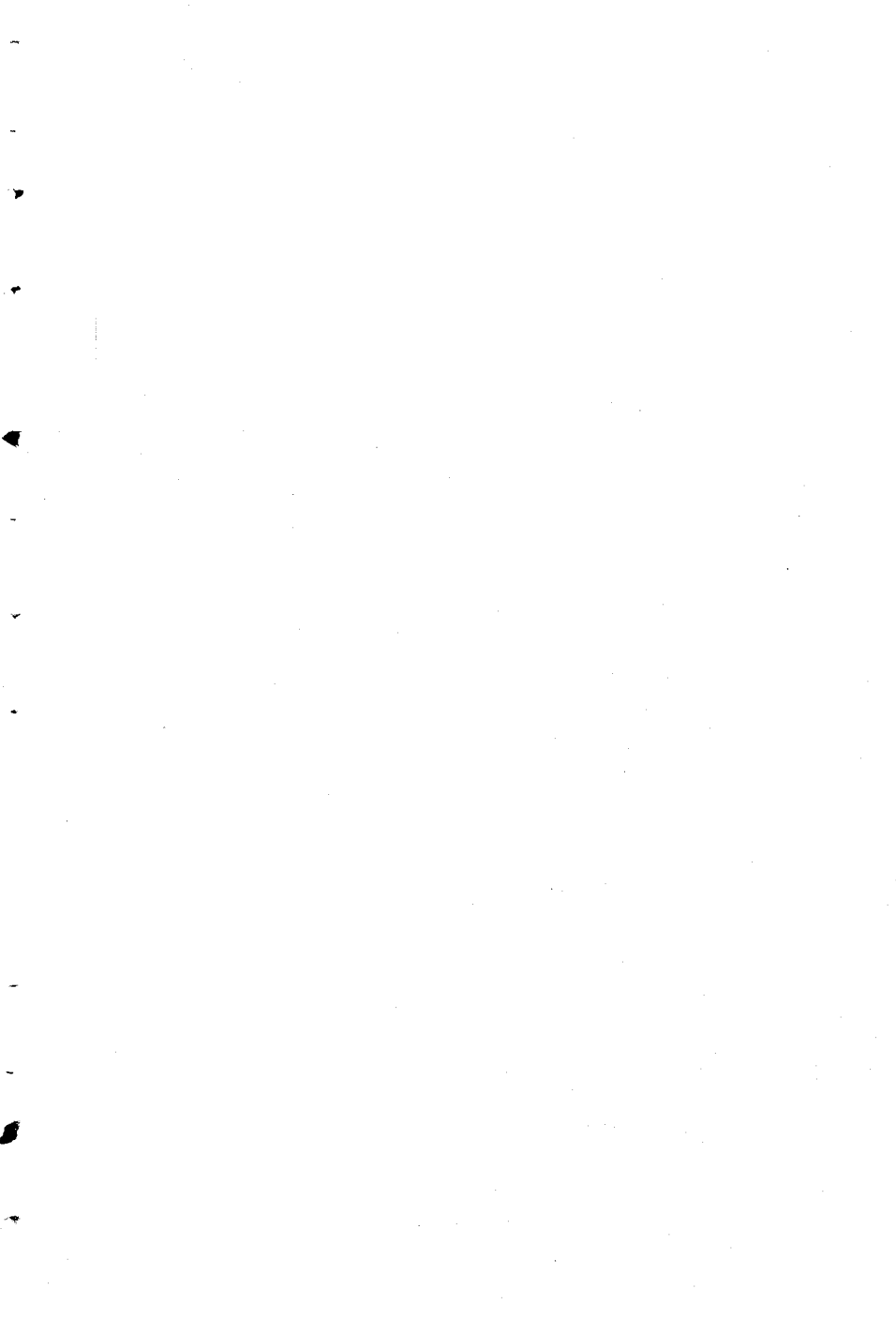
ويقول السياسي : الداء استعباد البرية والدواء استرداد الحرية

ويقول الحكيم : الداء القدرة على الاعتساف والدواء الاقتدار على
الاستنصاف .

ويقول الحقوقي : الداء تغلب السلطة على الشريعة والدواء تغليب الشريعة
على السلطة .

ويقول الرباني : الداء مشاركة الله في الجبروت والدواء توحيده الله حقاً .

وهذه اقوال اهل النظر . واما اهل الغزائم :
فيقول الابي : الداء مد الرقاب للسلاسل والدواء الشموخ عن الذل .
ويقول المتين : الداء وجود الرؤساء بلا زمام والدواء ربطهم
بالقيود الثقال .
ويقول الحر : الداء التعالي على الناس باطلا والدواء تذليل
المتكبرين .
ويقول المفادى : الداء حب الحياة والدواء حب الموت .



ماهو الاستبداد

الاستبداد لغة هو غرور المرء برأيه والانفة عن قبول النصيحة او الاستقلال في الرأي وفي الحقوق المشتركة .

ويراد بالاستبداد عند اطلاقه استبداد الحكومات خاصة لانها اعظم مظاهر اضراره التي جعلت الانسان اشقى ذوي الحياة . واما تحكم النفس على العقل ، وتحكم الاب والاساذ والزوج ، ورؤساء بعض الاديان ، وبعض الشركات ، وبعض الطبقات ، فيوصف بالاستبداد مجازا او مع الاضافة .

الاستبداد في اصطلاح السياسيين هو تصرف فرد او جمع في حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف تبعه ، وقد تطرق مزيدات على هذا المعنى الاصطلاحى فيستعملون في مقام كلمة (استبداد) كلمات : استعباد ، واعتساف ، وتسلط ، وتحكم . وفي مقابلتها كلمات : مساواة ، وحس مشترك ، وتكافؤ ، وسلطة عامة . ويستعملون في مقام صفة (مستبد) كلمات : جبار ، وطاغية ، وحاكم بامرهم ، وحاكم مطلق . وفي مقابلة (حكومة مستبدة) كلمات : عادلة ، ومسئولة ، ومقيدة ، ودستورية . ويستعملون في مقام وصف الرعية (المستبد عليهم) كلمات : اسرى ، ومستغربين ، وبوساء ، ومستنبتين ^(١) ، وفي مقابلتها : احرار ،

(١) الاستنبتات او التنبت من اصطلاحات الفرنج يريدون به الحياة الشبيهة بحياة النبات .

واباة ، واحياء ، واعزاء .

هذا تعريف الاستبداد بأسلوب ذكر المرافات والمقابلات، واما تعريفه بالوصف فهو ان الاستبداد صفة للحكومة المطلقة العنان فعلا او حكما التي تعترف في شؤون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محققين. وتفسير ذلك هو كون الحكومة اما هي غير مكلفة بتطبيق تصرفها على شريعة ، او على امثلة تقليدية ، او على ارادة الامة ، وهذه حالة الحكومات المطلقة . او هي مقيدة بنوع من ذلك ولكنها تملك بنفوذها ابطال قوة القيد بما تهوى ، وهذه حالة اكثر الحكومات التي تسمى نفسها بالمقيدة او بالجمهورية.

واشكال الحكومة المستبدة كثيرة ليس هذا البحث محل تفصيلها. ويكفي هنا الاشارة الى ان صفة الاستبداد ، كما تشمل حكومة الحاكم الفرد المطلق الذي تولى الحكم بالغلبة او الوراثة ، تشمل ايضا الحاكم الفرد المقيد المنتخب متى كان غير مسؤول ، وتشمل حكومة الجمع ولو منخبنا لان الاشتراك في الرأي لا يدفع الاستبداد وانما قد يعد له الاختلاف نوعا ، وقد يكون عند الاتفاق اضر من استبداد الفرد . ويشمل ايضا الحكومة الدستورية المفترقة فيها بالكلية قوة التشريع عن قوة التنفيذ وعن القوة المراقبة لان الاستبداد لا يرتفع مالم يكن هناك ارتباط في المسؤولية فيكون المنفذون مسؤولين لدى المشرعين ، وهؤلاء مسؤولون لدى الامة ، تلك الامة التي تعرف انها صاحبة الشأن كله وتعرف ان تراقب وان تقاضى الحساب .

واشد مراتب الاستبداد التي يتعوذ بها من الشيطان هي حكومة الفرد

المطلق ، الوارث للعرش ، القائد للجيش ، الحازن على سلطة دينية . ولنا ان نقول كلما قل وصف من هذه الاوصاف خف الاستبداد الى ان ينتهي بالحاكم المنتخب الموقت المسؤول فعلا . وكذلك يخف الاستبداد طبعاً كلما قل عدد نفوس الرعية وقل الارتباط بالاملاك الثابتة وقل التفاوت في الثروة وكلما ترقى الشعب في المعارف .

ان الحكومة من اي نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والاحتساب الذي لاتسامح فيه كما جرى في صدر الاسلام في ماتم على عثمان ثم على علي رضي الله عنها ، وكما جرى في عهد هذه الجمهورية الحاضرة في فرنسا في مسائل النياشين وبناموودريفوس .

ومن الامور المقررة طبيعة وتاريخياً انه ما من حكومة عادلة تأمن المسؤولية والمؤاخذة بسبب غفلة الامة او تتمكن من اغفالها الا وتسارع الى التلبس بصفة الاستبداد ، وبعد ان تتمكن فيه لاتتركه وفي خدمتها احدي الوسيلتين العظيمتين : جهالة الامة ، والجنود المنظمة . وهما اكبر مصائب الامم واهم معائب الانسانية ، وقد تخلصت الامم المتقدمة نوعاً من الجهالة ، ولكن بليت بشدة الجنديية الجبرية العمومية ؛ تلك الشدة التي جعلتها اشقى حياة من الامم الجاهلة والصق عاراً بالانسانية من اقبح اشكال الاستبداد حتى ربما يصح ان يقال ان مخترع هذه الجنديية اذا كان هو الشيطان فقد انتقم من آدم في اولاده اعظم ما يمكنه ان ينتقم ! نعم اذا دامت هذه الجنديية التي مضى عليها نحو قرنين الى قرن آخر ايضاً تنهك تجلدا الامم وتجعلها تسقط دفعة واحدة .

ومن يدري كم يتعجب رجال الاستقبال من ترقى العلوم في هذا العصر ترقياً مقروناً باشتداد هذه المصيبة التي لا تترك محلاً لاستغراب اطاعة المصريين للفرعنة في بناء الاهرامات سخرة ، لان تلك لا تتجاوز التعب وضياع الاوقات ، واما الجندية فتفسد اخلاق الامة حيث تعلمها الشراسة والطاعة العمياء والاتكال وتميت النشاط وفكرة الاستقلال وتكلف الامة الاتفاق الذي لا يطاق ، وكل ذلك منصرف لتأييد الاستبداد المشؤوم : استبداد الحكومات القائدة لتلك القوة من جهة ، واستبداد الامم بعضها على بعض من جهة اخرى .

ولنرجع لاصل البحث فاقول : ولا يعهد في تاريخ الحكومات المدنية استمرار حكومة مسؤولة مدة اكثر من نصف قرن الى غاية قرن ونصف ، وما شذ من ذلك سوى الحكومة الحاضرة في انكلترا ، والسبب يقظة الانكليز الذين لا يسكروم انتصار ، ولا يظلمهم انكسار ، فلا يغفلون لحظة عن مراقبة ملوكهم ، حتى ان الوزارة هي تنتخب للملك خدمه وحشمه فضلاً عن الزوجة والصهر ، وملوك الانكليز الذين فقدوا منذ قرون كل شيء ماعدا التاج ، لو تسنى الان لاحدم الاستبداد لغنمه حالا ولكن هيئات ان يظفر بغرة من قومه يستلم فيها زمام الجيش .

اما الحكومات البدوية التي تتألف رعيتها كلها او اكثرها من عشائر يقطنون البادية يسهل عليهم الرحيل والتفرق متى مست حكومتهم حريتهم الشخصية وسامتهم ضيماً ولم يقووا على الاستنصاف ، فهذه الحكومات قلما اندفعت الى الاستبداد واقرب مثال لذلك اهل جزيرة العرب فانهم لا يكادون يعرفون

الاستبداد من قبل عهد ملوك تبَّع وحمير وغسان الى الآن الافتراضات قليلة .
وأصل الحكمة في ان الحالة البدوية بعيدة بالجملة عن الوقوع تحت نير الاستبداد
وهو ان نشأة البدوى نشأة استقلالية بحيث كل فرد يمكنه ان يعتمد في
معيشته على نفسه فقط خلافا لقاعدة الانسان المدني الطبع ، تلك القاعدة التي
اصبحت سخرية عند علماء الاجتماع المتأخرين ، القائلين بأن الانسان من
الحيوانات التي تعيش اسرابا في كهوف ومسارح مخصوصة ، واما الآن فقد صار من
الحيوان الذي متى انتهت حضائنه عليه ان يعيش مستقلاً بذاته غير متعلق باقاربه
وقومه كل الارتباط ، ولا مرتبط ببيته وبلده كل التعلق كما هي معيشة اكثر
الانكليز والاميركان الذين لا يفكر الفرد منهم ان تعلقه بقومه وحكومته ليس
باكثر من رابطة شريك في شركة اختيارية خلافا للامم التي تتبع حكوماتها
حتى فيما تدين .

الناظر في احوال الامم يرى ان الاسراء يعيشون متلاصقون مترامون يتحفظ
بعضهم ببعض من سطوة الاستبداد كالغنم تلتف على بعضها اذا ذعرها الذئب ،
اما العشائر والامم الحرة المالك افرادها الاستقلال التام فيعيشون متفرقون .
وقد تكلم بعض الحكماء لاسيما المتأخرون منهم في وصف الاستبداد
ودوائه بجملة بليغة بديعة تصور في الاذهان شقاء الانسان كأنها تقول له هذا
عدوك فانظر ماذا تصنع ، ومن هذه الجمل قولهم :

« المستبد يتحكم في شئون الناس بارادته لا بارادتهم ويحكمهم بهواه لا
بشريعتهم ، ويعلم من نفسه انه الغاصب المتعدي فيضع كعب رجله على افواه

الملايين من الناس يسدها عن النطق بالحق والتداعي لمطالبته .»

« المستبد عدو الحق ، عدو الحرية وقاتلها ، والحق ابوالبشر والحرية امهم
والعوام صبية ايتام نيام لايعلمون شيئاً ، والعلماء هم اخوتهم الراشدون ، ان
يقظوهم هبوا وان دعوهم لبوا والا فيتصل نومهم بالموت .»

« المستبد يتجاوز الحد ما لم ير حاجزا من حديد ، فلو رأى الظالم على
جنب المظلوم سيقاً لما اقدم على الظلم كما يقال : الاستعداد للحرب يمنع الحرب .»

« المستبد انسان مستعد بالطبع للشر وبالاجاء للخير ، فعلى الرعية ان
تعرف ماهو الخير وما هو الشر فتلجج حاكمها للخير رغم طبعه ، وقد يكفي
للاجاء مجرد الطلب اذا علم الحاكم ان وراء القول فعل . ومن المعلوم ان مجرد
الاستعداد للفعل فعل يكفي شر الاستعداد .»

«المستبد يود ان تكون رعيته كالغنم درأ وطاعة ، وكالكلاب تذلا
وتملقا ، وعلى الرعية ان تكون كالخيل ان خدمت خدمت ، وان ضربت
كسرت ، وعليها ان تكون كالصقور لا تلاعب ولا يستأثر عليها بالصيد كله ،
خلافاً للكلاب التي لا فرق عندها اطممت او حُرمت حتى من العظام ؛ نعم على
الرعية ان تعرف مقامها هل خلقت خادمة لحاكمها ، تطيعه ان عدل او جار ،
وخلق هو ليحكمها كيف شاء بعدل او اعتساف ، ام هي جاءت به ايخدمها
لايستخدمها ! . والرعية العاقلة تقيد وحش الاستعداد بزمام تستमित دون
بقاءه في يدها لتأمن من بطشه فان شمخ هزت به الزمام وان صال ربطته .»

من اقبح انواع الاستبداد استبداد الجهل على العلم واستبداد النفس على العقل ويسمي استبداد المرء على نفسه وذلك ان الله جلت نعمه خلق الانسان حراً قائده العقل فكفر وأبى الا ان يكون عبداً قائده الجهل ، خلقه وسخر له اما و ابا يقومان بأوده الى ان يبلغ اشده ، ثم جعل له الارض اما والعمل ابا ، فكفر وما رضي الا ان تكون امته وحاكمه اباه . خلق له ادراكا ليهتدي الى معاشه ويتقي مهلكه ، وعينين ليصير ، ورجلين ليعسى ، ويدين ليعمل ، ولسانا ليكون ترجمانا عن ضميره ، فكفر وما احب الا ان يكون كالابله الاعمى ، المقعد ، الاشل ، الكذوب ، ينتظر كل شيء من غيره ، وقلما يطاق لسانه جنانه . خلقه منفرداً غير متصل بغيره ليملك اختياره في حركته وسكونه فكفر وما استطاب الا الارتباط في ارض محدودة سماها الوطن ، وتشابك بالناس ما استطاع اشتباك تظام لا اشتباك تعاون . . . خلقه ليشكره على جعله عنصراً حياً بعد ان كان تراباً ، ويلجأ اليه عند الفزع تشيئاً للجنان ، وليستند عليه عند العزم دفعا للتردد ، واثيق بمكافاته او مجازاته على الاعمال ، فكفر و ابى شكره و خلط في دين الفطرة الصحيح بالباطل ليغالط نفسه وغيره . خلقه يطلب منفعته جاعلاً رائده الوجدان ، فكفر واستحل المنفعة باي وجه كان فلا يتعفف عن محذور صغير الا توصله لمحرم كبير . خلقه وبذل له مواد الحياة ، من نور ونسيم ونبات وحيوان ومعادن وعناصر مكنوزة في خزائن الطبيعة بمقادير ناطقة بلسان الحال بان واهب الحياة حكيم خبير جعل مواد الحياة الاكثر لزوماً في ذاته ، اكثر وجوداً وابتدالاً . فكفر الانسان نعمة

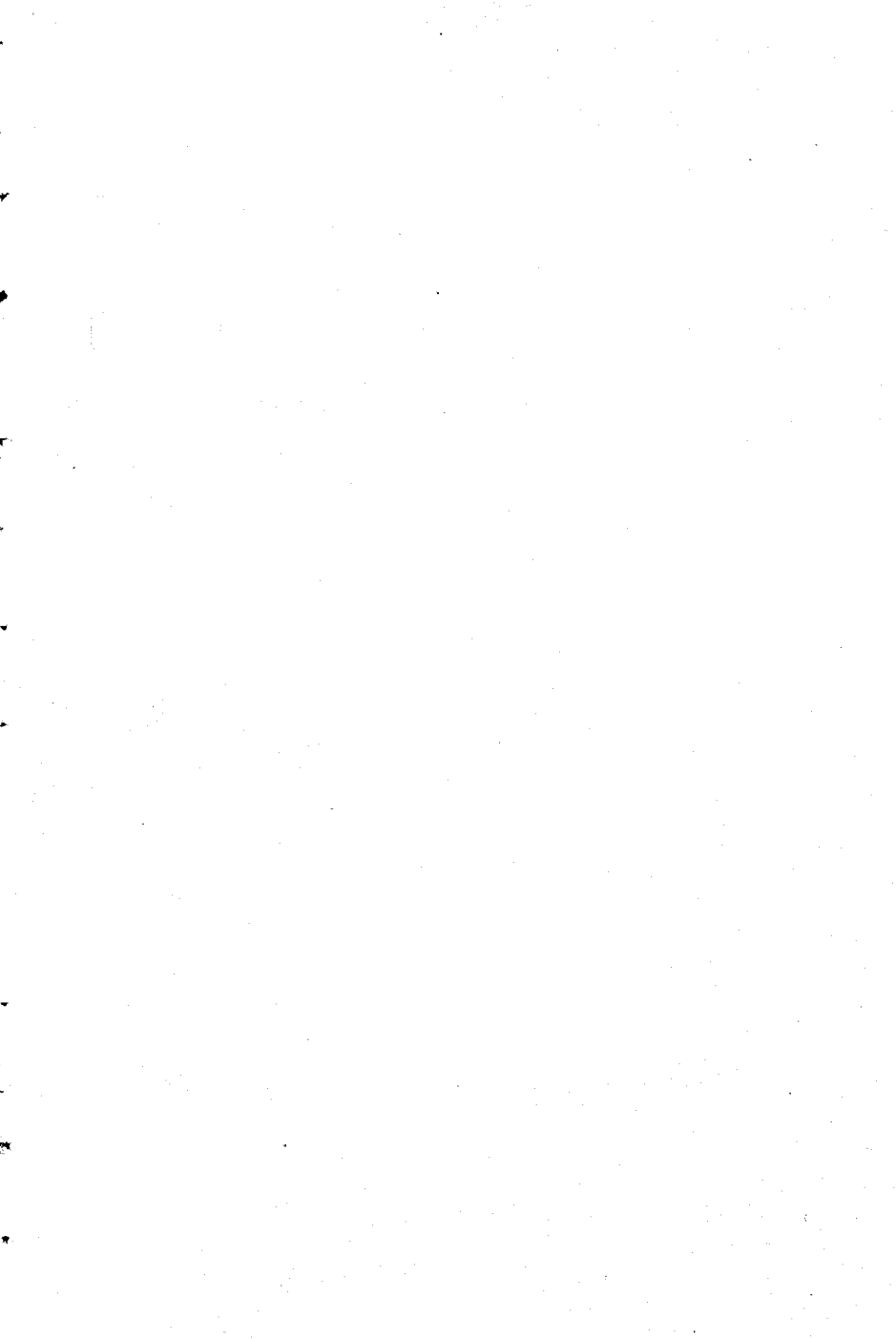
الله وابى ان يعتمد كفالة رزقه فوكله ربه الى نفسه وابتلاه بظلم نفسه وظلم
جنسه وهكذا كان الانسان ظالوما كفوراً .

الاستبداد يد الله القوية الخفية يصفع بها رقاب الأبقين من جنة عبوديته
الى جهنم عبودية المستبدين الذين يشاركون الله في عظمته ويعاندونه جهاراً
وقد ورد في الخبر : (الظالم سيف الله ينتقم به ثم ينتقم منه) ، كما جاء في اثر
آخر : (من اعان ظالماً على ظلمه سلطه الله عليه) ولا شك في ان اعانة الظالم
تبدأ من مجرد الاقامة في ارضه .

الاستبداد هو نار غضب الله في الدنيا ، والحجيم نار غضبه في الآخرة
وقد خلق الله النار اقوى المطهرات فيطهر بها في الدنيا دنس من خلقهم
احراراً وبسط لهم الارض واسعة وبذل فيها رزقهم ، فكفروا بنعمته ورضخوا
للاستعباد والتظالم .

الاستبداد اعظم بلاء يتجمل الله به الانتقام من عباده الخاملين ولا
يرفعه عنهم حتى يتوبوا توبة الانفة . نعم ، الاستبداد اعظم بلاء لانه وباء دائم
بالفتن وجذب مستمر بتعطيل الاعمال ، وحريق متواصل بالسلب والغصب ،
وسيل جارف للعمران ، وخوف يقطع القلوب ، وظلام يعمي الابصار ، والم
لايفتر ، وصائل لايرحم ، وقصة سوء لانتهمي . واذا سأل سائل لماذا يبلي
الله عباده بالمستبدين ؟ فالجواب مسكت هو : ان الله عادل مطلق لا يظلم احداً ،
فلا يولي المستبد الا على المستبدين . ولو نظر السائل نظرة الحكيم المدقق لوجد
كل فرد من اسراء الاستبداد مستبداً في نفسه لو قدر لجمل زوجته وعائلته

وعشيرته وقومه والبشر كلهم حتى وربّه الذي خلّقه تابمين لرأيه وامره .
فالمستبدون يتولاهم مستبد والاحرار يتولاهم الاحرار ، وهذا صريح
معنى : (كما تكونوا يولى عليكم) .
ماليق بالاسير في ارض ان يتحول عنها الى حيث يملك حرّيته فان الكلب
الطليق خير حياة من الاسد المربوط .



الاستبداد والدين

تضافرت آراء اكثر العلماء الناظرين في التاريخ الطبيعي للاديان على ان الاستبداد السياسي متولد من الاستبداد الديني ، والبعض يقول ان لم يكن هناك توليد فيها اخوان ابوها التغلب وامها الرياسة ، او هما صنوان قويان بينها رابطة الحاجة على التعاون لتذليل الانسان ، والمشكلة بينها انها كان احدهما في مملكة الاجسام والآخر في عالم القلوب . والفريقان مصيبان في حكمها بالنظر الى مغزى اساطير الاولين والقسم التاريخي من التوراة والرسائل المضافة الى الانجيل ؛ ومخطئون في حق الاقسام التعليمية الاخلاقية فيها ، كما هم مخطئون اذا نظروا الى ان القرآن جاء مؤيداً للاستبداد السياسي ، وليس من العذرشي ان يقولوا نحن لاندرك دقائق القرآن نظراً لحفاؤها علينا في طبي بلاغته ووراء العلم باسباب نزول آياته ، وانما نبني نتيجتنا على مقدمات ما نشاهد عليه المسلمين منذ قرون الى الآن من استعانة مستبديهم بالدين .

يقول هؤلاء المحررون ان التعاليم الدينية ومنها الكتب السماوية تدعو البشر الى خشية قوة عظيمة هائلة لاتدرک العقول كنها ، قوة تهدد الانسان بكل مصيبة في الحياة فقط كما عند البوذية واليهودية ، او في الحياة وبعدمات كما عند النصرى والاسلام ، تهديداً ترتد منه الفرائص فتخور القوى

وتنذهل منه العقول فتستسلم للخجل والخول ، ثم تفتح هذه التعاليم ابواب النجاة من تلك المخاوف نجاة وراءها نعيم مقيم ، ولكن على تلك الابواب حجاب من البراهمة والكهنة او القسوس وامثالهم الذين لا يأذنون للناس بالدخول مالم يعطوهم مع التذلل والصغار ويرزقوهم باسم نذر او ثمن غفران ، حتى ان اولئك الحجاب في بعض الاديان يحجزون فيما يزعمون لقاء الارواح برهبانهم يأخذوا عنها مكوس المرور الى القبور وفدية الخلاص من مطهر الاعراف . وهؤلاء المهيمنون على الاديان كم يرهبون الناس من غضب الله وينذرونهم بحلول مصائبه وعذابه عليهم ثم يرشدونهم الى ان لا خلاص ولا مناص لهم الا بالاتجاه الى سكان القبور الذين لهم دالة بل سطوة على الله فيحمونهم من غضبه .

ويقولون ان السياسيين ينون كذلك استبدادهم على اساس من هذا القبيل ، فهم يسترهبون الناس بالتمالي الشخصي والتشامخ الحسي ، ويدلواونهم بالقهر والقوة وسلب الاموال حتى يجعلوهم خاضعين لهم عاملين لأجلهم يتمتعون بهم كأنهم نوع من الانعام التي يشربون البانها ويأكلون لحومها ويركبون ظهورها وبها يتفاخرون .

ويرون ان هذا التشاكل في بناء ونتائج الاستبدادين الديني والسياسي جعلها في مثل فرنسا خارج باريس مشتركين في العمل كأنها يدان متعاونتان ، وجعلها في مثل روسيا مشتركين في الوظيفة كأنها اللوح والقلم يسجلان الشقاء على الامم .

ويقررون ان هذا التشا كل بين القوتين ينجر بعوام البشر وهم السواد الاعظم الى نقطة ان يلتبس عليهم الفرق بين الآله المعبود بحق وبين المستبد المطاع بالقهر ، فيختلطان في مضابق اذهانهم من حيث التشابه في استحقاق مزيد التعظيم ، والرفعة عن السؤال وعدم المؤاخذة على الافعال ؛ بناء عليه لا يرون لانفسهم حقا في مراقبة المستبد لانتفاء النسبة بين عظمتة ودناءتهم؛ وبعبارة اخرى يمجّد العوام معبودهم وجارهم مشتركين في كثير من الحالات والاسماء والصفات ، وهم هم ايس من شأنهم ان يفرقوا مثلاً بين الفعّال المطلق ، والحاكم بأمره ، وبين (لايسئل عما يفعل) وغير مسؤل ، وبين (المنعم) وولي نعم ، وبين (جل شأنه) وجليل الشأن . بناء عليه يعظمون الجبارة تعظيمهم لله ، ويزيدون تعظيمهم على التعظيم لله لانه حلیم كريم ولان عذابه أجل غائب ، واما انتقام الجبار فعاجل حاضر . والعوام كما يقال عقولهم في عيونهم ، يكاد لا يتجاوز فعلهم المحسوس المشاهد حتى يصح ان يقال فيهم : لولا رجاءهم بالله وخوفهم منه فيما يتعلق بحياتهم الدنيا لما صلوا ولا صاموا ، ولولا املهم العاجل لما رجحوا قراءة الدلائل والاوراد على قراءة القرآن ، ولا رجحوا اليمين بالاوامياء المقربين كما يعتقدون على اليمين بالله .

وهذه الحال هي التي سهلت في الامم الغابرة المنحطة دعوى بعض المستبدين الالوهية على مراتب مختلفة حسب استعداد اذهان الرعية ، حتى يقال انه انه مامن مستبد سياسي الى الآن الا ويتخذ له صفة قدسية يشارك بها الله او تعطيه مقام ذي علاقة مع الله . ولا اقل من ان يتخذ بطانة من خدمة الدين

يعينونه على ظلم الناس باسم الله ، و اقل ما يعينون به الاستبداد تفريق الامم الى مذاهب وشيع متعادلة تقاوم بعضها بعضاً فتتهار قوة الامة ويذهب ربحها فيخلو الجو للاستبداد لليبيص ويفرغ ، وهذه سياسة الانكليز في المستعمرات لا يؤيدها شيء مثل انقسام الاهالي على انفسهم وافناءهم بأسهم بينهم بسبب اختلافهم في الاديان والمذاهب .

و يعلمون ان قيام المستبدين من امثال (ابناء داود) و (قسطنطين) في نشر الدين بين رعايهم وانتصار مثل (فيليب الثاني) الاسباني و (هنري الثامن) الانكليزي للدين حتى بتشكيل مجالس (انكليزييون)^(١) وقيام الحاكم الفاطمي والسلطين الاعاجم في الاسلام بالانتصار لفلاة الصوفية وبنائهم لهم التسكيات لم يكن الا بقصد الاستعانة بمسوخ الدين وبيع بعض اهله المغفلين على ظلم المساكين ، واعظم ما يلائم مصلحة المستبد ويؤيدها ان الناس يتلقون قواعده واحكامه باذعان بدون بحث او جدال فيودون تأليف الامة على تلقي اوامرهم بمثل ذلك ، ولهذا القصد عينه كثيرا ما يحاولون بناء اوامرهم او تفرعها على شيء من قواعد الدين .

ويحكون بان بين الاستبداديين السياسي والديني مقارنة لا تنفك متى وجد احدهما في امة جر الآخر اليه او متى زال زال رفيقه ، وان صلح اي ضعف

(١) محاكم لمعاينة المتهمين بالزندقة او مخالفة بعض احكام الدين وفيها

انواع العذاب.

احدهما صلح اي ضعف الثاني . ويقولون ان شواهد ذلك كثيرة جداً لا يخلو منها زمان ولا مكان، ويبرهنون على ان الدين اقوى تأثيراً من السياسة اصلاً وافساداً، ويمثلون بالسكسون اي الانكليز والهولنديين والاميركان والالمان الذين قبلوا البروتستنتية فائر التحرير الديني في الاصلاح السياسي والاخلاق اكثر من تأثير الحرية المطلقة السياسية في جمهور اللاتين اي الفرنسيين والطلتبان والاسبانيول والبرتغال . وقد اجمع الكتاب السياسيون المدققون بالاستناد على التاريخ والاستقراء من ان مامن امة او عائلة او شخص تنطم في الدين اي تشدد فيه الا اختل نظام دنياه وخسر اولاه وعقباه .

والحاصل ان كل المدققين السياسيين يرون ان السياسة والدين يمشيان متكافئين ، ويعتبرون ان اصلاح الدين هو اسهل واقوى واقرب طريق للاصلاح السياسي .

وربما كان اول من سلك هذا المسلك اي استخدام الدين في الاصلاح السياسي هم حكماء اليونان ، حيث تحيلوا على ملوكهم المستبدين في حملهم على قبول الاشتراك في السياسة باحيائهم عقيدة الاشتراك في الالهوية ، اخذوها عن الآشوريين ومزجوها باساطير المصريين بصورة تخصيص العدالة بآله والحرب بآله والامطار بآله الى غير ذلك من التوزيع ، وجعلوا لآله الآلهة حق النظارة عليهم ، حق الترجيح عند وقوع الاختلاف بينهم . ثم بعد تمكن هذه العقيدة في الازهان بما البست من جلالة المظاهر وسحر البيان سهل على اولئك الحكماء دفعهم الناس الى مطالبة جبارتهم بالنزول من مقام الانفراد ،

وبأن تكون ادارة الارض كادارة السماء ، فانصاع ملوكهم الى ذلك مكرهين وهذه هي الوسيلة العظمى التي مكنت اليونان اخيراً من اقامة جمهوريات اثينا واسبارطة . وكذلك فعل الرومان . وهذا الاصل لم يزل المثال القديم لاصول توزيع الادارة في الحكومات الملكية والجمهوريات على انواعها الى هذا العهد .

اما هذه الوسيلة اي التشريك ، فضلاً عن كونها باطلة في ذاتها ، نتج عنها اخيراً رد فعل اضر كثيراً ، وذلك انها فتحت للشعوزين من سائر طبقات الناس باباً واسعاً لدعوى شي من خصائص الالهية كالصفات القدسية والتصرفات الروحية ، وكان قبل ذلك لا يتمجم على مثلها غير افرا من الجبارة كنمرود ابراهيم وفرعون موسى ثم صار يدعيها البرهمي والبادري والصوفي . وللملأمة هذه المفسدة لطباع البشر من وجوه كثيرة ليس بحثنا هذا محلها انتشرت وعمت وجندت جيشاً عرمرم ما يخدم المستبدين .

وقد جاءت التوراة بالنشاط فخلصتهم من خمر الاتكال بعد ان بلغ فيهم ان يكلفوا الله وبنيه يقاتلان عنهم ، وجاءتهم بالنظام بعد فوضى الاحلام ، ورفعت عقيدة التشريك مستبدلة مثلاً اسماء الالهة المتعددين باللائكة ولكن لم يرض بعض ملوك آل كوهين بالتوحيد فافسدوه . ثم جاء الانجيل بسلسيل الدعة والحلم فصادف افئدة محروقة بنار القساوة والاستبداد ، وكان ايضا مؤيداً لتاموس التوحيد ، ولكن لم يقو دعائه الاولون على تفهيم تلك الاقوام المنحطة ، الذين بادروا لقبول النصرانية قبل الامم المتبرقية ،

ان الابوة والبنوة صفتان مجازيتان يعبر بهما عن معنى لا يقبله العقل الا تسليماً
كسألة القدر التي ورثت الاسلامية الفيلسوف فيها عن اديان الهند و اوهاام
اليونان ، ولهذا تلقت تلك الامم الابوة والبنوة بمعنى توالد حقيقي لانه اقرب
الى مداركهم البسيطة التي يصعب عليها تناول مافوق المحسوسات ، ولاهم
كانوا قد القوا الاعتقاد في بعض جبارتهم الاولين انهم ابناء الله ، فكبر
عليهم ان يمتقدوا في عيسى عليه السلام صفة هي دون مقام اولئك الملوك . ثم
لما انتشرت النصرانية ودخلها قوم مختلفون تلبست ثوباً غير ثوبها كما هو شأن
سائر الاديان التي سلفتها فتوسمت برسائل بؤاس ونحوها فامتزجت بأزياء
وشعار وثنية للرومان والمصريين مضافة على شعائر الاسرائيليين واشياء
من الاساطير وغيرها ، واشياء من مظاهر الملوك ونحوها ، وهكذا صارت
النصرانية تعظم رجال الكهنوت الى درجة اعتقاد النيابة عن الله والعصمة
عن الخطأ ، وقوة التشريع ونحو ذلك مما رفضه اخيراً البروتستان اي الراجعون
في الاحكام لاصل الانجيل .

ثم جاء الاسلام مهذباً لليهودية والنصرانية مؤسساً على الحكمة والعزم
هادماً للتشريك بالكلمية ، ومحكماً لقواعد الحرية السياسية المتوسطة بين
الديموقراطية والاريسستوقراطية ؛ فاسس التوحيد ونزع كل سلطة دينية
او تغليبية تتحكم في النفوس او في الاجسام ، ووضع شريعة حكمة اجمالية صالحة
لكل زمان وقوم ومكان ، ووجد مدينة فطرية سامية ، واطهر الوجود حكومة
كحكومة الخلفاء الراشدين التي لم يسمح الزمان بمثال لها بين البشر حتى ولم

يخلقهم فيها بين المسلمين انفسهم خلف الابدان شواذ كعمر بن عبد العزيز
والمهتدي العباسي ونور الدين الشهيد . فان هؤلاء الخلفاء الراشدين فهموا معنى
ومغزى القرآن النازل بلغتهم وعملوا به واتخذوه اماماً فانشأوا حكومة قضت
بالتساوي حتى بينهم انفسهم وبين فقراء الامة في نعيم الحياة وشظفها ،
واحدثوا في المسلمين عواطف اخوة وروابط هيئة اجتماعية اشتراكية لاتكاد
توجد بين اشقاء يعيشون باعالة اب واحد وفي حضنة ام واحدة ، لكل منهم
وظيفة شخصية ، ووظيفة عائلية ووظيفة قومية . على ان هذا الطراز السامي
من الرياسة هو الطراز النبوي المحمدي لم يخلفه فيه حقاً غير ابي بكر وعمر
ثم اخذ بالتناقص ، وصارت الامة تطلبه وتبكيه من عهد عثمان الى الآن ، وسيدوم
بكاؤها الى يوم الدين اذا لم تنتبه لآستمواضه بطراز سياسي شوري ؛ ذلك
الطراز الذي اهتدت اليه بعض امم الغرب ؛ تلك الامم التي لربما يصح ان
نقول قد استفادت من الاسلام اكثر مما استفاده المسلمون .

وهذا القرآن الكريم مشحون بتعاليم امارة الاستبداد واحياء العدل
والتساوي حتى في القصاص منه ؛ ومن جملتها قول بلقيس ملكة سبا من عرب
تبَّع تحاطب اشراف قومها : « يا أيها الملأ افتوني في امري ما كنت قاطعة امرأ
حتى تشهدون ، قالوا نحن اولو قوة وألو بأس شديد ؛ والامر اليك فانظري
ماذا تأمرين ؛ قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها
اذلة وكذلك يفعلون . »

فهذه القصة تعلم كيف ينبغي ان يستشير الملوك الملأ اي اشراف الرعية ،

وان لا يقطعوا امرأ الا برأيهم ، وتشير الى لزوم ان تحفظ القوة والبأس في يد
الزعيم ، وان يخصص الملوك بالتنفيذ فقط وان يكرموا بنسبة الامر اليهم
توقيراً ، وتفتح شأن الملوك المستبدين .

ومن هذا الباب ايضاً ماورد في قصة موسى عليه السلام مع فرعون في
قوله تعالى : « وقال الملا من قوم فرعون ان هذا الساحر عليم يريد ان يخرجكم
من ارضكم اذا تأمرون » اي قال الاشراف بعضهم لبعض : ماذا رأيكم ؟
(قالوا) خطابا لفرعون وهو قرارهم : « ارجه واخاه وارسل في المدائن
حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم » (١) ثم وصف مذكراتهم بقوله تعالى :
« فتنازعوا امرهم » اي رأيهم « بينهم واسروا النجوى » اي افضت مذكراتهم
العلنية الى النزاع فاجروا مذاكرة سرية طبق مايجري الى الآن في مجالس
الشورى العمومية .

بناء على ماتقدم لاجال لرمي الاسلامية بتأييد الاستبداد مع تأسيسها على
مئات من امثال هذه الآيات البينات التي منها قوله تعالى « وشاورهم في الامر »
اي في الشأن ، ومن قوله تعالى « يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا
الرسول واولي الامر منكم » اي اصحاب الرأي والشأن منكم ، وعم العلماء
والرؤساء على مااتفق عليه اكثر المفسرين ، وهم الاشراف في اصطلاح
السياسيين . وما يؤيد هذا المعنى ايضاً قوله تعالى « وما امر فرعون » اي ما

(١) الساحر هو الداھية المقتدر على التمويه والخداع .

شأنه ، وحديث « اميري من الملائكة جبريل » اي مشاوري .

وليس بالامر الغريب ضياع معنى « اولي الامر » على كثير من الافهام بتضليل علماء الاستبداد الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، وقد اغفلوا معنى قيد (منكم) اي المؤمنين منعا لتطرق افكار المسلمين الى التفكير بان الظالمين لا يحكمونهم بما انزل الله ، ثم التدرج الى معنى آية « ان الله يأمر بالعدل » اي التساوي ، « واذا حكتم بين الناس ان تحموا بالعدل » اي التساوي ؛ ثم ينتقل الى معنى آية « ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون » . ثم يستنتج عدم وجوب طاعة الظالمين وان قال بوجوبها بعض الفقهاء المائلين دفعا للفتنة التي تحصد امثالهم حصداً . والاغرب من هذا جسارتهم على تضليل الافهام في معنى (امر) في آية : « اذا اردنا اهلاك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها العذاب » ؛ فانهم لم يبالوا ان ينسبوا الى الله الامر بالفسق... . الى الله عن ذلك علوا كبيرا... والحقيقة في معنى (امرنا) هنا انه بمعنى امرنا - بكسر الميم او تشديدها - اي جعلنا امراءها مترفيها ففسقوا فيها (اي ظلموا اهلها) فحق عليهم العذاب اي (نزل بهم العذاب) .

والاغرب من هذا وذاك انهم جعلوا للفظه العدل معنى عرفياً وهو الحكم بمقتضى ما قاله الفقهاء حتى اصبحت لفظه العدل لا تدل على غير هذا المعنى ، مع ان العدل لغة التسوية ؛ فالعدل بين الناس هو التسوية بينهم وهذا هو المراد في آية : « ان الله يأمر بالعدل » ، وكذلك القصاص في آية : « ان لكم في القصاص حياة » المتواردة مطلقاً ، لا المعاقبة بالمثل فقط على ما يتبادر الى اذهان الاسراء

الذين لا يعرفون للتساوي موقفاً في الدين غير في الوقوف بين يدي القضاء .
وقد عدد الفقهاء من لا تقبل شهادتهم لسقوط عدالتهم فذكروا حتى من
ياكل ماشياً في الاسواق ؛ ولكن شيطان الاستبداد انسام ان يفسقوا
الامراء الظالمين فيردوا شهادتهم . ولعل الفقهاء يُعذرون بسكوتهم هنا مع
تشجيعهم على الظالمين في مواقع اخرى ؛ ولكن ما عذرهم في تحويل معنى الآية :
« ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »
الى ان هذا الفرض هو فرض كفاية لا فرض عين والمراد منه سيطرة افراد
المسلمين بعضهم على بعض ؛ لاقامة فئة تسيطر على حكاهم كما اهتدت الى ذلك
الامم الموقفة للخير ؛ فخصصت منها جماعات باسم مجالس نواب وظيفتها
السيطرة والاحتساب على الادارة العمومية : السياسية والمالية والتشريعية ،
فخلصوا بذلك من شامة الاستبداد . اليست هذه السيطرة وهذا الاحتساب
بأهم من السيطرة على الافراد ؟ ومن يدري من اين جاء فقهاء الاستبداد
بتقديس الحكام عن المسؤولية حتى اوجبوا لهم الحمد اذا عدلوا ، واوجبوا
الصبر عليهم اذا ظلموا ، وعدوا كل معارضة لهم بغيماً يبيح دماء المعارضين ؟!
اللهم ان المستبدين وشركاهم قد جعلوا دينك غير الدين الذي انزلت فلا
حول ولا قوة الا بك !

كذلك ما عذر اولئك الصوفية الذين جعلتهم الانعامات على زواياهم ان
يقولوا : لا يكون الامير الاعظم الا ولياً من اولياء الله ، ولا يأتي امرأ الا
بالهام من الله ، وانه يتصرف في الامور ظاهراً ، ويتصرف فيها قطب الغوث

باطناً ! الا سبحان الله ما احلمه !

نعم ، لولا حلم الله لخسف الارض بالعرب ؛ حيث ارسل لهم رسولا من انفسهم اسئس لهم افضل حكومة اسست في الناس ، جعل قاعدتها قوله : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » اي كل منكم سلطان عام ومسئول عن الامة . وهذه الجملة التي هي اسمي وابلغ ماقاله مشرع سياسي من الاولين والآخرين ، فجاء من المنافقين من حرف المعنى عن ظاهره وعموميته الى ان المسلم راع على عائلته ومسئول عنها فقط . كما حرفوا معنى الآية : « المؤمنون بعضهم اولياء بعض » الى ولاية الشهادة دون الولاية العامة . وهكذا غيروا مفهوم اللغة ، وبدلوا الدين ، وطمسوا على العقول حتى جعلوا الناس ينسون لذة الاستقلال ، وعزة الحرية ؛ بل جعلوهم لا يعقلون كيف تحكم امة نفسها بنفسها بدون سلطان قاهر .

وكأن المسلمين لم يسمعوا بقول النبي عليه السلام : « الناس مواسية كأسنان المشط ، لافضل لعربي على عجمي الا بالتقوى » . وهذا الحديث من اصح الاحاديث لمطابقته للحكمة وبجيبته مفسرا الآية « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » فان الله جل شأنه ساوي بين عباده مؤمنين وكافرين في المكرومة بقوله : « وكرمنا بني آدم » ثم جعل الافضلية في الكرامة للمتقين فقط . ومعنى التقوى لغة ليس كثرة العبادة كما صار ذلك حقيقة عرفية غرسها علماء الاستبداد القائلين في تفسير (عند الله) اي في الآخرة دون الدنيا ؛ بل التقوى لغة هي الاتقاء اي الابتعاد عن ردائل الاعمال احترازامن عقوبة

الله . فقوله ان اكرمكم عند الله اتقاكم كقوله ان افضل الناس اكثرهم ابتعادا
عن الآثام وسوء عواقبها .

وقد ظهر مما تقدم ان الاسلامية مؤسسة على اصول الحرية برفعها كل
سيطرة وتحكم بأمرها بالعدل والمساواة والقسط والاخاء، بمحضها على الاحسان
والتحاب . وقد جعلت اصول حكومتها : الشورى الارستوقراطية اى
شورى اهل الحل والعقد في الامة بقولهم لابسيوفهم . وجعل اصول ادارة
الامة : التشريع الديمقراطي اى الاشتراكي حسبما يأتي فيما بعد . وقد مضى
عهد النبي عليه السلام وعهد الخلفاء الراشدين على هذه الاصول بآتم وأكمل
صورها . ومن المعلوم انه لا يوجد في الاسلامية نفوذ ديني مطلقا في غير مسائل
اقامة شعائر الدين ومنها القواعد العامة التشريعية التي لا تبلغ مائة قاعدة وحكم
كلها من اجل واحسن ما اهتدى اليه المشرعون من قبل ومن بعد . ولكن
والأسفاه على هذا الدين الحر ، الحكيم ، السهل ، السمح ، الظاهرة فيه آثار
الرقى على غيره من سوابقه . الدين الذي رفع الاصر والاعلال واناذ الميزة
والاستبداد . الدين الذي ظلمه الجاهلون فحجروا حكمة القرآن ودفنوها في
قبور الهوان . الدين الذي فقد الانصار الابرار والحكام الاخير فسطاعليه
المستبدون والمرشحون للاستبداد ، واتخذوه وسيلة لتفريق الكلمة وتقسيم
الامة شيعا ، وجعلوه آلة لأهوائهم السياسية فضيعوا مزاياه وحيروا اهله
بالتفريع والتوسيع ، والتشديد والتشويش ، وادخال ما ليس منه فيه كما فعل
قبلهم اصحاب الاديان السائرة ، حتى جعلوه ديناً حرجاً يتوهم الناس فيه ان

كل مادونه المتفننون بين دفتي كتاب ينسب لاسم اسلامي هو من الدين ،
وبمقتضاها ان لا يقوى على القيام بواجباته وآدابه ومزيداته ، الا من لاعلاقة
له بالحياة الدنيا ؛ بل اصبحت بمقتضاها حياة الانسان الطويل العمر ، العاقل
عن كل عمل ، لائق بتعلم ماهي الاسلامية عجزا عن تمييز الصحيح من الباطل
من تلك الآراء المتشعبة التي اطال اهلها فيها الجدل والمناظرة ؛ وما افترقوا
الا وكل منهم في موقفه الاول يظهر انه الزم خصمه الحجة واسكته البرهان
والحقيقة ان كلا منهم قد سكت تعباً وكلالاً من المشاغبة .

وبهذا التشديد الذي ادخله على الدين منافثو الجوس ؛ انفتح على الامة
باب التلوم على النفس ، واعتقاد التقصير المطلق ، وان لانجاة ولا مخرج ولا
امكان لمحاسبة النفس فضلا عن محاسبة الحكام المنوط بهم قيام العدل والنظام .
وهذا الاهمال للمراقبة وهو اهمال الامر بالمعروف والنهي عن المنكر قد اوسع
لامراء الاسلام مجال الاستبداد وتجاوز الحدود . وبهذا وذاك ظهر حكم
حديث : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر او ليستعملن الله عليكم
شراركم فليسومونكم سوء العذاب » . واذا تبعننا سيرة ابي بكر وعمر رضي الله
عنهما مع الامة ، نجدانها مع كونهما مفطورين خير فطرة ، وناقلين التربية النبوية
لم تترك الامة معها المراقبة والمحاسبة ولم تطعها طاعة عمياء .

وقد جمع بعضهم جملة مما اقتبسه واخذه المسلمون عن غيرهم وليس هو من
دينهم بالنظر الى القرآن والمتواترات من الحديث واجماع السلف الاول فقال:

(اقتبسوا) من النصرانية مقام البابوية باسم الغوثية و (ضاهوا) في الاوصاف والاعداد اوصاف واعداد البطارقة ، والكرديناوية والشهداء والاساقفة، و(حاكوا) مظاهر القديسين وعجائبهم ، والدعاة المبشرين وصبرهم، والرهبنة ورؤسائها ، وحالة الاديرة وبادريتها. والرهبنة ورسومها والحمية وتوقيتها ، (وقلدوا) رجال الكهنوت والبراهمة في مراتبهم وتميزهم في البستهم وشعورهم، ولبس المساح في الرقاب ، (وقلدوا) الوثنيين الرومانيين في الرقص على انغام الناي والتغالي في تطيب الموتى والاحتفال الزائد في الجنائز وتسريح الذبائح معها وتكليفها وتكليل القبور بالزهور . (وشاكلوا) مراسم الكنائس وزينتها ، والبيع واحتفالاتها، والترنحات ووزنها ، والترنحات واصولها، واقامة الكنائس على القبور ، وشد الرحال لزيارتها ، والاسراج عليها، والخضوع لديمها ، وتعليق الآمال بسكانها . و (اخذوا) التبرك بالآثار : كالقدح والحربة والدستار ، من احترام الذخيرة و قدسية العكاز ، وكذلك امرار اليد على الصدر عند ذكر الصالحين ، من امرارها على الصدر لاشارة التصليب . و (انتزعوا) الحقيقة من السر ، ووحدة الوجود من الحلول ، والخلافة من الرسم ، والسقيا من تناول القران ، والمولد من الميلاد ، وحفلته من الاعياد ، ورفع الاعلام من حمل الصليبان ، وتعليق الواح الاسماء المصدرة بالنداء على الجدران من تعليق الصور والتماثيل، والاستفاضة والمراقبة من التوجه بالقلوب انحاء امام الاصنام . و (منعوا) الاستهداء من نصوص الكتاب والسنة كحظر الكاثوليك التفهم من الانجيل وامتناع احبار اليهود عن

اقامة الدليل من التوراة في الاحكام . و (جاءوا) من الجوسية باستطلاع الغيب من الفلك وبخشية اوضاع الكواكب وبتخاذ اشكالها شماراً للملك ، و باحترام النار ومواقدها . و (قلدوا) البوذيين حرفاً بحرف في الطريقة والريضة وتعذيب الجسم بالنار والسلاح ، واللعب بالحيات والعقارب وشرب السموم ، وودق الطبول والصنوج وجمع لـ رواتب من الادعية والاناشيد والاحزاب، واعتقاد تأثير العزائم ونداء الاسماء ، وحمل التأمم الى غير ذلك مما هو مشاهد في بوذي الهند ومجوس فارس والسند الى يومنا هذا . وقد قيل انه نقله الى الاسلامة امثال جون وست وسلطان علي منلا والبغدادى وحشية فلان الشيخ وفلان الفارسي ، على ان اسناد ذلك الى اشخاص معينين يحتاج الى تثبيت . (ولفقوا) من الاساطير والاسرائيليات انواعاً من القربات ، وعلوما سموها لدينيات .

وكذلك يقال عن مبتدعي النصراني من ان اكثر ما اعتبره المتأخرون منهم من الشعائر الدينية حتى مشكلة التثليث لاصل له فيما ورد عن نفس المسيح عليه السلام ؛ انما هو مزيدات وترتيبات قليلها مبتدع ، وكثيرها متبع . وقد اكتشف العلماء الآثاريون من الصفائح الحفرية الهندية والآشورية ومن الصحف التي وجدت في نواويس المصريين الاقدمين على ما اخذنا اكثرها . وكذلك وجدوا لمزيدات التلمود وبدع الاحبار اصولاً في الاساطير والآثار والالواح الآشورية، وترقوا في التطبيق والتدقيق الى ان وجدوا معظم الخرافات المضافة الى اصول عامة الاديان في الشرق الاذنى مقبسة من

الوضعيات المنسوبة لنحل الشرق الاقصى ، وقد كشفت الاثار ان الاستبداد اخفي تاريخ الاديان وجعل اخبار منشأها في ظلام مطبق ، حتى ان اعداء الاديان المتأخرين امكثهم ان ينكروا اساسا وجود موسى وعيسى عليهما السلام ، كما شوش الاستبداد في المسلمين تاريخ آل البيت عليهم الرضوان ؛ الامر الذي تولد عنه ظهور الفرق التي تشيعت لهم كالامامية والاشماعيلية والزيدية والحاكمية وغيرهم .

والخلاصة ان البدع التي شوشت الايمان وشوهت الاديان تكاد كلها تتسلسل بعضها من بعض وتتولد جميعها من غرض واحد هو المراد الا وهو الاستعباد .

والناظر المدقق في تاريخ الاسلام يجد للمستبدين من الخلفاء والملوك الاوليين وبعض العلماء الاعاجم وبعض مقلديهم من العرب المتأخرين اقوالا افتروها على الله ورسوله تضليلا للامة عن سبيل الحكمة يريدون بها اطفاء نور العلم واطفاء نور الله ، ولكن ابي الله الا ان يتم نوره ؛ فحفظ للمسلمين كتابه الكريم الذي هو شمس العلوم وكنز الحكم من ان تمسه يد التحريف وهي احدى معجزاته لانه قال فيه « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » فما مسه المنافقون الا بالتأويل وهذا ايضا من معجزاته ؛ لانه اخبر عن ذلك في قوله : « فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » . واني امثل المطالعين ما فعله الاستبداد في الاسلام بما حجر على العلماء الحكماء من ان يفسروا قسما الآلاء والاخلاق من القرآن تفسيراً مدققاً

لانهم كانوا يخافون مخالفة رأى بعض الغفل السالفين او بعض المناقسين
المقرين المعاصرين ، فيكفرون فيقتلون . وهذه مسألة اعجاز القرآن وهي اهم
مسألة في الدين لم يقدرها ان يوفوها حقها من البحث واقتصروا على ما قاله
فيها بعض السلف قولاً بجحلاً من انها قصور الطاقة عن الاتيان بمثله في فصاحته
وبلاغته وانه اخبر عن ان الروم من بعد غلبهم سيغلبون . مع انه لو فتح
للعلماء ميدان التدقيق وحرية الرأى والتأليف كما اطلق عنان التخريف لاهل
التأويل والحكم لأظهروا في الوف من آيات القرآن الوف آيات من الاعجاز،
لرأوا فيه كل يوم آية تتجدد مع الزمان والحدثان تبرهن اعجازه بصدق
قوله : « ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين » ، ولجعلوا الامة تؤمن باعجازه
عن برهان وعيان لا مجرد تسليم واذعان.

ومثال ذلك ان العلم كشف في هذه القرون الاخيرة حقائق وطبائع
كثيرة تعزى لاكتشافها ومخترعيها من علماء اوربا وامريكا ؛ والمدقق في
القرآن يجد اكثرها ورد به التصريح او التلميح في القرآن منذ ثلاثة عشر
قرناً ؛ وما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء الا لتكون عند ظهورها
معجزة للقرآن شاهدة بانه كلام رب لا يعلم الغيب سواه ، ومن ذلك انهم قد
كشفوا ان مادة الكون هي الاثير وقد وصف القرآن بدأ التكوين فقال :
« ثم استوى الى السماء وهي دخان » . وكشفوا ان الكائنات في حركة دائمة
دائبة والقرآن يقول : « وآية لهم الارض الميتة احييناها ، الى ان يقول : « وكل
في فلك يسبحون » .

وحققوا ان الارض منفتحة في النظام الشمسي والقرآن يقول : « ان
السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما »

وحققوا ان القمر منشق من الارض والقرآن يقول : « افلا يرون اننا
نأتي الارض ننقصها من اطرافها » . ويقول : « اقتربت الساعة وانشق القمر »
وحققوا ان طبقات الارض سبع والقرآن يقول : « خلق سبع سموات
طباقا ومن الارض مثلهن »

وحققوا انه لولا الجبال لاقضى الثقل النوعي ان تميد الارض اي ترتج
في دورتها والقرآن يقول : « وانتي في الارض رواسي ان تميد بكم » .

وكشفوا ان سر التركيب الكيماوي بل والمعنى هو تخالف نسبة المقادير
وضبطها والقرآن يقول : « كل شيء عنده بمقدار » .

وكشفوا ان للجحادات حياة قائمة بماء التبلور والقرآن يقول : « وجعلنا
من الماء كل شيء حي »

وحققوا ان العالم العضوي ومنه الانسان ترقى من الجحاد والقرآن يقول :
« ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين »

وكشفوا ناموس اللقاح العام في النبات والقرآن يقول : « خلق الازواج
كلها مما تنبت الارض » ويقول : « فأخرجنا به ازواجا من نبات شتى » ويقول :
« اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج » . ويقول : « ومن كل الثمرات
جعل فيها زوجين » .

و كشفوا طريقة امساك الظل اي التصوير الشمسي والقرآن يقول :
« ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس
عليه دليلاً » .

و كشفوا تسيير السفن والمركبات بالبخار والكهرباء والقرآن يقول ،
بعد ذكره الدواب والجواري بالريح : « وخلقنا لهم من مثله مايركبون » .
و كشفوا وجود المكروب وتأثيره الجذري وغيره من الامراض والقرآن
يقول : « وارسل عليهم طيراً ابابيل » اي متتابعة مجتمعة « ترميهم بحجارة من
سجيل » اي من طين المستنقعات اليابس . الى غير ذلك من الآيات الكثيرة
المحققة لبعض مكتشفات علم الهيئة والنواميس الطبيعية . وبالقياس على ما تقدم
ذكره يقتضي ان كثيراً من آياته سينكشف سرها في المستقبل في وقتها
المرهون تجديداً لا عجزه باخباره عمّا في الغيب مادام الزمان وماكر
الجديدان ؛ فلا بد ان يأتي يوم يكشف العلم فيه ان الجهادات ايضاً تنمو بالقاح
كما تشير الى ذلك آية « ومن كل شيء خلقنا زوجين » .

الاستبداد والعلم

ما شبه المستبد في نسبه الى رعيته بالوصي الخائن القوي يتصرف في اموال الايتام وانفسهم كما يهوى ماداموا ضعافا قاصرين ، فكما انه ليس من صالح الوصي ان يبلغ الايتام رشدهم ، كذلك ليس من غرض المستبد ان تتنور الرعية بالعلم .

لا يخفى على المستبد مها كان غيباً ان لا استعباد ولا اعتساف الا مادامت الرعية حقاء تجبظ في ظلامه جهل وتيه عماء ، فلو كان المستبد طيرا كان خفاشا يصطاد هوام العوام في ظلام الجهل ، ولو كان وحشا لكان ابن آوى يتلقف دواجن الحواضر في غشاء الليل ، ولكنه هو الانسان يصيد عالمه جاهله .

العلم قبسة من نور الله وقد خلق الله النور كشافاً مبصراً ، ولاداً للحرارة والقوة وجعل العلم مثله وضاحاً للخير فضاحاً للشر ، يولد في النفوس حرارة وفي الرؤوس شهامة ، العلم نور والظلم ظلام ومن طبيعة النور تبديد الظلام ، والمتأمد في حالة كل رئيس ومرؤوس يرى كل سلطة الرئاسة تقوى وتضعف في نسبة نقصان علم المرؤوس وزيادته .

المستبد لا يخشى علوم اللغة ، تلك العلوم التي بعضها يقوم اللسان واكثرها

هزل وهذيان يضيع به الزمان ، نعم لا يخاف علم اللغة اذا لم يكن وراء اللسان
حكمة حماس تعقد الالوية ، او سحر بيان يحمل عقد الجيوش لانه يعرف ان
الزمان ضنين بأن تلد الامهات كثيراً من امثال الكميت وحسان او
مونتيسكيو وشيللار .

وكذلك لا يخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد المختصة ما بين
الانسان وربه لاعتقاده انها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة ، وانما يتلهم بها
المتهوسون للعلم حتى اذا ضاع فيها عمرهم ، وامتلتها ادمغتهم ، واخذ منهم الغرور
ما اخذ فصاروا لا يرون علما غير علمهم ، فحينئذ يأمن المستبد منهم كما يؤمن شر
السكران اذا خمر . على انه اذا نبغ منهم البعض ونالوا حرمة بين العوام
لا يعدم المستبد وسيلة لاستخدامهم في تأييد امره ومجاراته هو اذ في مقابلة انه
يضحك عليهم بشي من التعظيم ويسد افواههم بلقيات من فتات مائدة الاستبداد ؛
ولذلك لا يخاف من العلوم الصناعية محضاً لان اهلها يكونوا مسالمين صغار
النفوس ، صغار الهمم ؛ يشترهم المستبد بقليل من المال والاعزاز . ولا يخاف
من الماديين لان اكثرهم مبتلون بايثار النفس ، ولا من الرياضيين لان
غالبيهم قصار النظر .

ترتد فرائض المستبد من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية ، والفلسفة
العقلية ، وحقوق الامم وطبائع الاجتماع ، والسياسة المدنية ، والتاريخ
المفصل ، والخطابة الادبية ، ونحو ذلك من العلوم التي تكبر النفوس
وتوسع العقول وتعرف الانسان ماهي حقوقه وكم هم مغبون فيها ، وكيف

الطلب ، وكيف النوال ، وكيف الحفظ . واخوف ما يخاف المستبد من اصحاب هذه العلوم المندفين منهم لتعليم الناس بالخطابة او الكتابة ، هم المعبر عنهم في القرآن بالصالحين والمصلحين في نحو قوله تعالى : « ان الارض يرثها عبادي الصالحون » وفي قوله : « وما كنا لنهلك القرى واهلها مصالحون » ، وان كان علماء الاستبداد يفسرون مادة الصلاح والاصلاح بكثرة التعبد كما حولوا معنى مادة الفساد والافساد : من تخريب نظام الله الى التشويش على المستبدين . والخلاصة ان المستبد يخاف من هؤلاء العلماء العاملين الراشدين المرشدين ؛ لامن العلماء المنافقين او الذين حفر رؤوسهم محفوظات كبيرة كأنها مكتبات مقفلة !

المستبد كما يبغض العلم لتأخره يبغضه ايضاً لذاته لان العلم سلطانا اقوى من كل سلطان ، فلا بد للمستبد من ان يستحقر نفسه كما وقعت عينه على من هو ارق منه علماً . ولذلك لا يحب المستبد ان يرى وجه عالم عاقل يفوق عليه فكراً فاذا اضطر لمثل الطبيب والمهندس يختار النبي المتصاغر المتعلق . وعلى هذه القاعدة بنى ابن خلدون قوله (فاز المتعلقون) وهذه طبيعة كل المتكبرين بل في غالب الناس وعليها مبني ثنائهم على كل من يكون مسكيناً خاملاً لا يرجى لخير ولا لشر .

وينتج مما تقدم ان بين الاستبداد والعلم حزبا دائمة وطرادا مستمرا : يسمى العلماء في تنوير العقول ويجهد المستبد في اطفاء نورها ، والطرفان يتجاذبان العوام . ومن هم العوام ؟ هم اولئك الذين اذا جهلوا اخفوا ، واذا خافوا استسلموا ،

كما انهم هم الذين متى علموا قالوا ومتى قالوا فعلوا .

العوام هم قوت المستقبل وقوته . بهم عليهم يصول ويطول ؛ يأسرم ،
فيتهللون لشوكته ، ويغصب اموالهم ، فيحمدونه على ابقائه حياتهم ؛ ويهينهم
فيثنون على رفعتهم ؛ ويفتخرون ببعض ، ويفتخرون بسياسته ، واذا
سرف في اموالهم ، يقولون كريماً ؛ واذا قتل منهم ولم يمثل ، يعتبرونه رحيماً ،
ويسوقهم الى خطر الموت ، فيطيعونه حذر التوبيخ ؛ وان نقم عليه منهم بعض الاباة
قاتلهم كأنهم بفاة .

والحاصل ان العوام يذبحون انفسهم بايديهم بسبب الخوف الناشئ عن
الجهل والغباوة ، فاذا ارتفع الجهل وتنور العقل زال الخوف ، واصبح الناس
لا ينتقادون طبعاً لغير منافعهم كما قيل : العاقل لا يخدم غير نفسه ، وعند ذلك
لا بد للمستبد من الاعتزال والاعتدال . وكم اجبرت الامم بترقيها المستقبل اللئيم
على الترقى معها والانتقال رغم طبعه الى وكيل امين يهاب الحساب ، ورئيس
عادل يخشى الانتقام ، واب حليم يتلذذ بالتحاب . وحينئذ تنال الامة حياة
رضية هنية ، حياة رخاء ونباه ، حياة عز وسعادة ؛ ويكون حظ الرئيس
من ذلك رأس الحظوظ ؛ بعد ان كان في دور الاستبداد اشقى العباد ، لانه
كان على الدوام ملحوظا بالبغضاء محاطا بالاحطار ، غير امين على رياسته ، بل
وعلى حياته طرفة عين ، ولانه لا يرى قط امامه من يسترشده فيما يجمل لان
الواقف بين يديه مها كان عاقلاً متيناً ، لا بد ان يهابه فيضطرب باله فيتشوش
فكره ويختل رأيه فلا يهتدي الى الصواب ، وان اهتدى فلا يجسر على التصريح

به قبل استطلاع رأي المستبد، فإن رآه متصلباً فيما يراه فلا يسمعه إلا تأييده رشحاً
كان أو غياً؛ وكل مستشار غيره يدعي أنه غير هباب فهو كذاب؛ والقول الحق
إن الصدق لا يدخل قصور الملوك؛ بناء عليه لا يستفيد المستبد قط من رأي
غيره بل يعمش في ضلال وتردد وعذاب وخوف وكفى بذلك انتقاماً منه على
استعباده الناس وقد خلقهم ربهم أحراراً

إن خوف المستبد من نقمة رعيته أكثر من خوفهم بأسه، لأن خوفه
نشأ عن علمه بما يستحقه منهم؛ وخوفهم ناشئ عن جهل؛ وخوفه عن عجز
حقيقي فيه، وخوفهم عن توهم التخاذل فقط، وخوفه على فقد حياته وسلطانه،
وخوفهم على لقيات من النبات وعلى وطن يألفون غيره في أيام؛ وخوفه على
كل شيء تحت سماء ملكه، وخوفهم على حياة تميمه فقط.

كلما زاد المستبد ظلماً واعتسافاً زاد خوفه من رعيته وحتى من حاشيته،
حتى ومن هواجسه وخيالاته. وأكثر ما تختم حياة المستبد بالجنون التام.
قلت التام لأن المستبد لا يخلو من اللحم قط لنفوره من البحث عن الحقائق،
وإذا صادف وجود مستبد غير أحمق فيسارعه الموت قهراً إذا لم يسارعه الجنون
أو العته، وقلت أنه يخاف من حاشيته لأن أكثر ما يبغش بالمستبد حواشيهم
لأن هؤلاء هم أشقى خلق الله حياة، يرتكبون كل جريمة وفضيحة لحساب
المستبد الذي يجعلهم يمسون ويصبحون بخبولين مصروعين يجهلون الفكر في
استطلاع ما يريد منهم فعله بدون أن يطلب أو يصرح. فكم ينقم عليهم ويهينهم
لمجرد أنهم لا يعلمون الغيب، ومن ذا الذي يعلم الغيب، الأنبياء والأولياء وما

هؤلاء الا اشقياء ؛ استغفرك اللهم ! لا يعلم غيبك نبي ولا ولي ، ولا يدعي ذلك الا دجال ولا يظن صدقه الا المغفل ، فانك اللهم قلت وتوكل الحق : «ولا يظهر على غيبه احدا» ، وافضل انبيائك يقول «لو علمت الخير لاستكثرت منه» .
من قواعد المؤرخين المدققين ان احدهم اذا اراد الموازنة بين مستبدين كنيرون وتيمور مثلا ، يكتفي ان يوازن درجة ما كانا عليه من التحذر والتحفظ . واذا اراد المفاضلة بين عادلين كاثوشر وان وعمر الفاروق ، يوازن مرتبتي امنها في قومها .

لما كانت اكثر الديانات مؤسسة على مبدأي الخير والشر كالنور والظلام والشمس وزحل ، والعقل والشيطان ، رأت بمض الامم الغابرة ان اضرت شي* على الانسان هو الجهل ، واضرت آثار الجهل هو الخوف ، فعملت هيكلًا مخصصاً للخوف بمبدأ اتقاء لشره .

قال احد المحررين السياسيين : اني ارى قصر المستبد في كل زمان هو هيكل الخوف عينه : فالملك الجبار هو المعبود ، واعوانه هم الكهنة ، ومكتبته هي المذبح المقدس ، والاقلام هي السكاكين ، وعبارات التعظيم هي الصلوات ، والناس هم الاسرى الذين يقدمون قرايين الخوف ؛ هو اهم التواميس الطبيعية في الانسان والانسان يقرب من الكمال في نسبة ابتعاده عن الخوف ولا وسيلة لتخفيف الخوف او نفيه غير العلم بحقيقة الخيف منه ؛ لينكشف للانسان ان لا محل فيه للخوف منه ، وهكذا اذا زاد علم افراد الرعية بان المستبد امرؤ عاجز مثلهم زال خوفهم منه وتقاضوه حقوقهم .

ويقول اهل النظر ان خير ما يستدل به على درجة استبداد الحكومات هو تعاليها في شأن الملوك وفخامة القصور وعظمة الحفلات ومراسم التشريعات وعلائم الابهة ونحو ذلك من الترهيبات التي يسترهب بها الملوك رعاياهم عوضاً عن العقل والمفاداة ، وهذه الترهيبات يلجأ اليها المستبد كما يلجأ قليل العز للتكبر وقليل العلم للتصوف وقليل الصدق لليمين وقليل المال لزينة اللباس .
ويقولون انه كذلك يستدل على عراقة الامة في الاستعباد او الحرية باستنطاق لغتها هل هي قليلة الفاظ التعظيم كالعربية مثلا ام هي غنية في عبارات الخضوع كالفارسية وكتلك اللغة التي ليس فيها بين المتخاطبين انا وانت بل سيدي وعبدكم .

والخلاصة ان الاستبداد والعلم ضدان متقابلان فكل ادارة مستبدة تسمى جهدها في اطفاء نور العلم ، وحصص الرعية في حالك الجهل . والعلماء الحكياء الذين يفتنون احيانا في مضايق صخور الاستبداد يسعون جهدهم في تنوير افكار الناس ، والغالب ان رجال الاستبداد يطاردون رجال العلم وينكلون بهم فالسعيد منهم من يتمكن من مهاجرة دياره وهذا سبب ان كل الانبياء العظام عليهم الصلاة والسلام واكثر العلماء الاعلام والادباء النبلاء تقبلوا في البلاد وماتوا غرباء .

الاسلامية اول دين حض على العلم وكفى شاهداً ان اول كلمة انزلت من القرآن هي الامر بالقراءة امرأ مكرراً ، واول منة اجلها الله وامتن بها على الانسان هي انه علمه بالقلم ، علمه به مالم يعلم . وقد فهم السلف الاول من

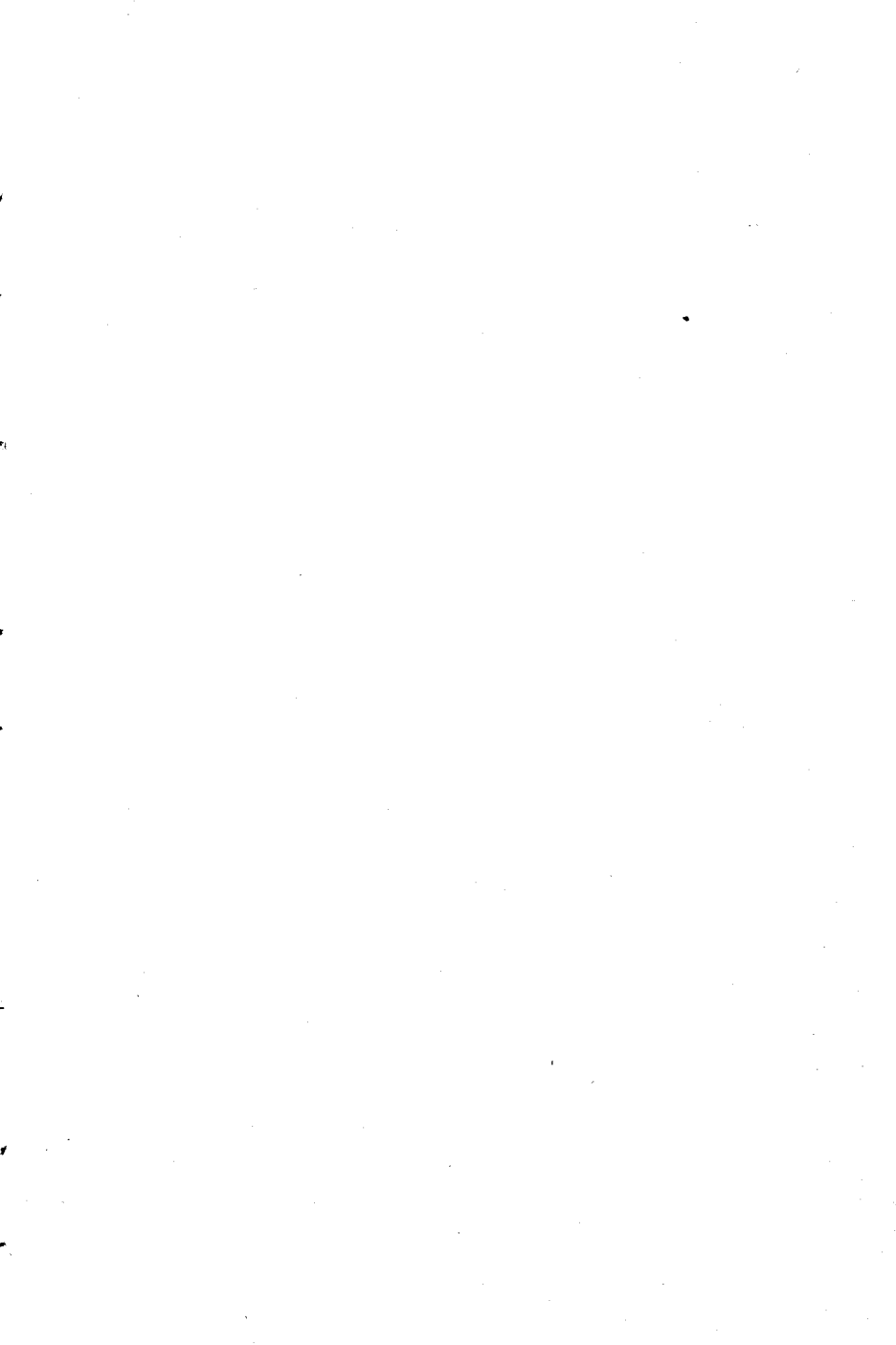
مغزى هذا الامر وهذا الامتنان وجوب تعلم القراءة والكتابة على كل مسلم،
وبذلك عمت القراءة والكتابة في المسلمين او كادت تم ، وبذلك صار العلم
في الامة حرا مباحا لكل لا يختص به رجال الدين او الاشراف كما كان في
الامم السابقة ؛ وبذلك انتشر العلم في سائر الامم اخذا عن المسلمين ! ولكن
قاتل الله الاستبداد الذي استهان بالعلم حتى جعله كالسلمة يعطى ويمسح
للاميين ولا يجرؤ احد على الاعتراض ، اجل ، قاتل الله الاستبداد الذي
رجع بالامة الى الامية فالتقى آخرها بأولها ولا حول ولا قوة الا بالله .

قال المدققون ان اخوف ما يخافه المستبدون الغربيون من العلم ان يعرف
الناس حقيقة ان الحرية افضل من الحياة ، وان يعرفوا النفس وعزها ،
والشرف وعظمته ، والحقوق وكيف تحفظ ، والظلم وكيف يرفع ، والانسانية
وما هي وظائفها ، والرحمة وما هي لذاتها .

اما المستبدون الشرقيون فافتدتهم هواء ترتجف من صولة العلم كان العلم
نار واجسامهم من بارود . المستبدون يخافون من العلم حتى من علم الناس معنى
كلمة (لا اله الا الله) ولماذا كانت افضل الذكر ولماذا بني عليها الاسلام . بني
الاسلام بل وكافة الاديان على لا اله الا الله ، ومعنى ذلك انه لا يعبد حقا سوى
الصانع الاعظم ومعنى العبادة الخضوع ومنها لفظة العبد فيكون معنى لا اله الا
الله : (لا يستحق الخضوع شيء غير الله) . وما افضل تكرار هذا المعنى على
الذاكرة اثناء الليل واطراف النهار تحذرا من الوقوع في ورطة شيء من
الخضوع لغير الله وحده . فهل والحالة هذه يناسب غرض المستبدين ان يعلم

عبيدهم ان لاسيادة ولاعبودية في الاسلام ولا ولاية فيه ولاخضوع، انما
المؤمنون بعضهم اولياء بعض . كلالا يلائم ذلك غرضهم وربما عدوا كلمة لا اله
الا الله شتما لهم ! ولهذا كان المستبدون ولا زالوا من انصار الشرك
واعداء العلم .

ان العلم لايناسب صغار المستبدين ايضا تخدمه الاديان المتكبرين وكالآباء
الجهلاء والازواج الحمقاء وكرؤساء كل الجمعيات الضعيفة . والحاصل انه
ما انتشر نور العلم في امة قط الا وتكسرت فيها قيود الاسر وساء مصير
المستبدين من رؤساء سيااسة اورؤساء دين .



الاستبداد والمجد

من الحكم البائنة للتأخرين قولهم « الاستبداد اصل لكل فساد، ومبني ذلك ان الباحث المدقق في احوال البشر وطبائع الاجتماع كشف ان للاستبداد اثرا سيئا في كل واد ، وقد سبق ان الاستبداد يضغط على العقل فيفسده ويلعب بالدين فيفسده ، ويحارب العلم فيفسده ، واني الآن ابحث في انه كيف يغاب الاستبداد المجد فيفسده ويقيم مقامه التمجيد .

المجد هو احراز المرء مقام حب واحترام في القلوب وهو مطلب طبيعي شريف لكل انسان، لا يترفع عنه نبي او زاهد ولا ينحط عنه دني او خامل . للمجد لذة روحية تقارب لذة العبادة عند الفانين في الله وتعادل لذة العلم عند الحكماء . وتربو على لذة امتلاك الارض مع قمرها عند الامراء . وتزيد على لذة مفاجأة الاثراء عند الفقراء . ولذا يزاحم المجد في النفوس منزلة الحياة .

وقد اشكل على بعض الباحثين اي الحرصين اقوى ؟ حرص الحياة ام حرص المجد ؟ والحقيقة التي عول عليها المتأخرون وميزوا بها تخليط ابن خلدون هي التفضيل ؛ وذلك ان المجد مفضل على الحياة عند الملوك والقواد وظيفة

وعند النجباء والاحرار حمية ؛ وحب الحياة ممتاز على المجد عند الاسراء
والاذلاء طبيعة وعند الجبناء والنساء ضرورة ، وعلى هذه القاعدة يكون ائمة
آل البيت عليهم السلام معذورين في القائمهم بانفسهم في تلك المهالك لانهم لما
كانوا نجباء احرارا فحميتهم جعلتهم يفضلون الموت كراما على حياة ذل مثل
حياة ابن خلدون الذي خطأ أجداد البشر في اقدمهم على الخطر اذاهدد مجدهم
ذاهلا عن ان بعض انواع الحيوان ومنها البلبل وجدت فيها طبيعة اختيار
الانتحار احيانا تخلصاً من قيود الذل وان اكثر سباع الطير والوحوش اذا
اسرت كبيرة تأبى الغذاء حتى تموت وان الحرة تموت ولا تأكل بعرضها
والماجدة تموت ولا تأكل بثديها !

المجد لاينال الى بنوع من البذل في سبيل الجماعة وبتعبير الشرفيين في
سبيل الله او سبيل الدين . وبتعبير الغربيين في سبيل المدنية او سبيل الانسانية،
والمولى تعالى المستحق التعظيم لذاته ماطالب عبيده بتمجيده الا وقرن الطلب
بذكر نعمائه عليهم .

وهذا البذل اما بذل مال للنفع العام ويسمى مجد الكرم وهو اضعف
المجد ، او بذل العلم النافع المفيد للجماعة ويسمى مجد الفضيلة ، او بذل النفس
بالتعرض للمشاق والاطار في سبيل نصرة الحق وحفظ النظام ويسمى مجد
النبالة ، وهذا اعلى المجد وهو المراد عند الاطلاق ؛ وهو المجد الذي تتوق اليه
النفوس الكبيرة وتحن اليه اعناق النبلاء . وكم له من عشاق تلذ لهم في حبه
المصاعب والمخاطرات واكثرهم يكون من مواليدي بيوت نادرة حتمها الصدق

من عيون الظالمين المذابين ، او يكون من نجباء بيوت ما انقطعت فيها سلسلة
المجاهدين وما انقطعت عجائزها عن بكأهم . ومن امثلة المجد قولهم : خلق
الله للمجد رجالا يستعدون الموت في سبيله ، ولا سبيل اليه الا بعظيم الهمة
والاقدام ، والثبات تلك الخصال الثلاث التي بها تقدر قيم الرجال .

وهذا (نبرون) الظالم سأل (اغريين) الشاعر وهو تحت النطع : من
اشقى الناس ؟ فاجابه عرضا به : من اذا ذكر الناس الاستبداد كان مثالا له
في الخيال . وكان (ترابان) العادل اذا قلده سيفاً اقائد يقول له : هذا سيف
الامة ارجو ان لا اتعدى القانون فلا يكون له نصيب في عنقي . وخرج قيس
من مجلس الوليد مغضباً يقول : اريد ان تكون جباراً والله ان نعال الصماليك
لاطول من سيفك . وقيل لاحد الاباة ما فائدة سميك غير جلب الشقاء على
نفسك فقال : ما احلى الشقاء في سبيل تنقيص الظالمين . وقال آخر : علي
ان افي بوظيفتي وما علي ضمان القضاء . وقيل لاحد النبلاء : لماذا لا تبني لك
داراً ؟ فقال ما صنع فيها وانا المقيم على ظهر الجواد او في السجن او في القبر ،
وهذه ذات النطاقين (اسماء بنت ابي بكر رضي الله عنها) وهي امرأة
عجوز تودع ابنها بقولها : ان كنت على الحق فاذهب وقاتل الحجاج حتى
تموت . وهذا مكماهون رئيس جمهورية فرنسا استبد في امر واحد فدخل
عليه صديقه غامبتا وهو يقول : الامر للامة لا اليك ، فاعتدل او اعترل والافانت
الخذول المهان الميت ! والحاصل ان المجد هو المجد محب للنفوس ، لا تفتأ تسعى وراءه
وترقى مراقبه ، وهو ميسر في عهد العدل لكل انسان على حسب استعداده
وهيمته ، وينحصر تحصيله في زمن الاستبداد بمقاومة الظلم على حسب الامكان .

يقابل المجد من حيث مبناه التمجد؟ وما هو التمجد؟ وماذا يكون التمجد؟
 التمجد لفظ هائل المعنى ولهذا اراني اتعثر بالكلام واتلعم في الخطاب ،
 ولا سيما من حيث اخشى مساس احساس مض المطالعين ؛ ان لم يكن من جهة
 انفسهم فمن جهة اجدادهم الاولين ، فانا شدم الوجدان والحق المهان ، ان
 يتجدوا دقيقتين من النفس وهوها ، ثم هم مثلي ومثل سائر الجانين على
 الانسانية لا يعدمون تأويلا . وانني اعلل النفس بقبولهم هوني هذا فانطلق واقول:
 التمجد خاص بالادارات المستبدة ، وهو القربي من المستبد بالفعل .
 كالأعوان والعمال ، او بالقوة كالمقربين بنحو دوق وبارون ، والمخاطبين بنحو
 رب العزة ورب الصولة ، او الموسومين بالنياشين او المطوقين بالحمائل ؛
 وتعريف آخر التمجد هو ان ينال المرء جذوة نار من جهنم كبرياء المستبد
 ليحرق بها شرف المساواة في الانسانية .

وبوصف اجلى هو ان يتقلد الرجل سيفاً من قبل الجبار يبرهن به
 على انه جلاذ في دولة الاستبداد ، او يعلق على صدره وساما مشعراً بما وراءه
 من الوجدان المستبيح للعدوان او يترين بسيور مزر كشة تنسجى بأنه صار
 مخشاً اقرب الى النساء منه الى الرجال ، وبعبارة اوضح واخصر هو ان يصير
 الانسان مستبداً صغيراً في كنف المستبد الاعظم .

قلت ان التمجد خاص بالادارات الاستبدادية ، وذلك لان الحكومة
 الحرة التي تمثل عواطف الامة تأبى كل الابطاء اخلال التساوي بين الافراد
 الا افضل حقيقي فلا ترفع قدرا احد منها الا رفعاً صورياً اثناء قيامه في

خدمتها اي الخدمة العمومية وذلك تشويقاً له على التفاني في الخدمة، كما انها
لا تميز احدا منها بوسام او تشرفه بلقب الا ما كان علمياً او ذكرى لخدمة
مهمة وفقه الله اليها . وبمثل هذا يرفع الله الناس بعضهم فوق بعض درجات في
القلوب لا في الحقوق .

وهذا لقب اللوردية مثلاً عند الانكليز هو من بقايا عهد الاستبداد ومع
ذلك لا يناله عندهم غالباً الا من يخدم امته خدمة عظيمة ويكون من حيث
اخلاقه و ثروته اهلاً لان يخدمها خدماً مهمة غيرها ، ومن المقرر ان لا اعتبار
للورد في نظر الامة الا اذا كان مؤسساً لاوارثاً ، او كانت الامة تقرأ
في جبهته سطراً محرراً بقلم الوطنية وعداد الشهامة محضى بدمه يقسم فيه
بشرفه انه ضمير بثروته وحياته ناموس الامة اي قانونها الاساسي ، حفيف على
روحها اي حريتها .

التمجد لا يكاد يوجد له اثر في الامم القديمة الا في دعوى الالوهية وما
بمعناها من نفع الناس بالانفاس ، او في دعوى النجابة بالنسب التي يهول بها
الاصلاء نسل الملوك والامراء ، وانما نشأ التمجيد بالالقاب والشارات في
القرون الوسطى وراج سوقه في القرون الاخيرة ثم قامت فتاة الحرية تغنى
بالمساواة وتفصل ادراته على حسب قوتها وطاقتها ولم تبلغ غايتها الى الآن في
غير امريكا .

التمجدون يريدون ان يخدعوا العامة ، وما يخدعون غير نسايم اللاتي
يتحفحن بين عجائز الحي بانهم كبار العقول كبار النفوس احرار في شؤونهم

لايزاح لهم نقاب ، ولا تصفع منهم رقاب ؛ فيحوجهم هذا المظهر الكاذب لتحمل الاساءات والاهانات التي تقع عليهم من قبل المستبد بل تحوجهم للحرص على كتبها بل على اظهار عكسها ، بل على مقاومة من يدعي خلافا ، بل على تغليب افكار الناس في حق المستبد وابعادهم عن اعتقاد ان من شأنه الظلم .

وهكذا يكون المتمجدون اعداء للعدل انصار اللجور ، لادين ولا وجدان ولاشرف ولا رحمة ، وهذا ما يقصده المستبد من ايجادهم والاكتار منهم ليمكن بواسطتهم من ان يفرر الامة على اضرار نفسها تحت اسم منفعتها ؛ فيسوقها مثلا لحرب اقتضاها محض التجبر والعدوان على الجيران فيوهمها انه يريد نصره الدين . او يسرف بالملايين من اموال الامة في ملذاته وتأيد استبداده بلم حفظ شرف الامة وابهة المملكة . او يستخدم الامة في التنكيل باعداء ظلمه باسم انهم اعداء لها . او يتصرف في حقوق المملكة والامة كما يشاؤه هو ، باسم ان ذلك من مقتضى الحكمة والسياسة .

والخلاصة ان المستبد يتخذ المتمجدين سماسة لتفجير الامة باسم خدمة الدين ، او حب الوطن او توسيع المملكة او تحصيل منافع عامة او مسئولية الدولة او الدفاع عن الاستقلال ، والحقيقة ان كل هذه الدواعي الفخيمة العنوان في الاسماع والاذهان ماهي الا تخمير وايهام يقصد بهارجال الحكومة تهيج الامة وتضليلها حتى انه لا يستثنى منها الدفاع عن الاستقلال ، لانه ما الفرق على امة مأسورة لزيد ان يأسرها عمرو ؛ وما مثلها الا الدابة التي

لايرحمها راكب مطئن مالكا كان او غاصباً .

المستبد لا يستغنى عن ان يستمد بعض افراد من ضعاف القلوب الذين هم كبقرة الجنة لا ينطحون ولا يرحمون ، يتخذهم كآء وذج البائع الغشاش على انه لا يستعملهم في شيء من مهامه فيكونوا لديه كمصحف في خمارة او سبحة في يد زنديق ، وربما لا يستخدم احياناً بعضهم في بعض الشؤون تغليطاً لاذهان العامة في انه لا يعتمد استخدام الاراذل والاسافر فقط ولهذا يقال دولة الاستبداد دولة بله واوغاد

المستبد يجرب احياناً في المناصب والمراتب بعض العقلاء الاذكياء ايضاً اغترار آمنه بانه يقوى على تليلين طينتهم وتشكيلهم بالشكل الذي يريد فيكونوا له اعوانا خبيثاء ينفعونه بداهتهم ، ثم هو بعد التجربة اذا خاب ويئس من افسادهم يتبادر ابعادهم او ينكل بهم . ولهذا لا يستقر عند المستبد الا الحاهل العاجز الذي يعيده من دون الله ، او الخبيث الخائن الذي يرضيه ويفضبه الله .

وهنا انبه فكر المطامنين الى ان هذه الفئة من العقلاء الامناء بالجملة الذين يذوقون عسيلة مجد الحكومة وينشطون لخدمة الامة ونيل مجد النبالة ، ثم يضرب على يدهم لجرد ان بين اضلعهم قبسة من الايمان وفي اعينهم بارقة من الانسانية ، هي الفئة التي تتكهرب بعداوة الامتبداد وينادي افرادها بالاصلاح . وهذا الانقلاب قد اعيانا المستبدين لانهم لا يستغنون عن التجربة ولا يأمنون هذه المنبة . ومن هنا نشأ اعتمادهم في التجربة غالباً على العريقين في خدمة الاستبداد الوارثين من آباءهم واجدادهم الاخلاق

المرضية للمستبدين ، ومن هنا ابتدأت في الامم نعمة التمجد بالاصالة والانساب، والمستبدون المحنكون يطيلون امد التجربة بالمنصب الصغيرة فيستعملون قاعدة الترقى مع التراخي ويسمون ذلك برعاية قاعدة القدم ، ثم يختمون التجريب باعطاء المتمرن خدمة يكون فيها رئيسا مطلقاً ولو في قرية فان اظهر مهارة في الاستبداد وذلك مايسمونه حكمة الحكومة فيها ونعمت والاقالوا عنه هذا حيوان ياضية الامل فيه .

ان الاصالة مشاكلة قوية للمجد والتمجد فلا بد ان نبحت فيها قليلا ثم نعود لموضوع المستبد واعوانه المتمجدين فاقول :

الاصالة صفة قد يكون لها بعض المزايا من حيث الاميال التي يرشها الابناء من الآباء ، ومن حيث التربية التي تكون مستحكمة في البيت ولو رياء ، ومن حيث ان الاصالة تكون مقرونة غالباً بشيء من الثروة المعينة على مظاهر الشهامة والرحمة ، ومن حيث ان الثروة تعين اهل البيت على اخفاء بعض رذائلهم عن اولادهم ومن حيث انها مدعاة غالباً للتمثل بالاقربان مشوقة للتفوق والتميز ، ومن حيث تقويتها الملاقة بالامة والوطن خوف مذلة الاغتراب ، ومن حيث ان اهلها يكونون منظورين دائماً فيتحاشون المعائب والنقائص بعض التحاشي .

وبيوت الاصالة تنقسم الى ثلاثة انواع : بيوت علم وفضيلة ، وبيوت مال وكرم ، وبيوت ظلم وامارة . وهذا الاخير هو القسم الاكثر عدداً والاهم موقفاً وهم كما سبقت الاشارة اليه مطمح نظر المستبد في الاستعانة وموضع

ثقته ، وهم الجند الذي يجتمع تحت لوائه بسهولة وربما يكفيه ان يضحك في وجههم ضحكة . فلننظر ماهو نصيب اهل هذا القسم من تلك المزايا الموروثة: هل يرث الابن من جده المؤسس لمجده امياله في العدالة ولم توجد ، ام يدب ويشب على غير الشرف المصغر للمقول ، المميت للهمم ، ام يتربى على غير الوفاق المضحك الباطل السائد فيما بين العائلة في بيتهم ، ام يستخدم الثروة في غير الملائم الجسمية الدنيئة البهيمية وتلك الابهة الطاروسية الباطلة ، ام يمتثل بغير اقران السوء المتملقين المنافقين ، ام لا يستحقر قومه لجهلهم قدر النظفة الملعونة التي خلق منها جنابه ، ام لا يبغض العلماء الذين لا يقدرونه قدره حسبما هو قائم في مخيلة خيالاته ، ام يرى لجناحه مقرا يلبق به غير مقعد التحكم ومستراح التأمير ، ام يستحي من الناس ومن هم الناس ؟ ما الناس عند حضرته غير اشباح فيها ارواح خلقت لخدمته !

وهذه حالة الاكثرين من الاصلاء ؛ على اننا لا نبخس حق من نال منهم حظاً من العلم واوتي الحكمة واراد الله به خيراً فاصابه بنصيب من القهر المنخفض به شاموخ انفه ، فان هؤلاء وقليل ما هم يتجبنون نجابة عظيمة عجيبة فيصدق عليهم انهم قد ورثوا قوة القلب يستعملونها في الخير لا في الشر ، واستفادوا من انفة الكبرياء الجسارة على العطاء ؛ وهكذا تحول فيهم ميزة الشر الى فائض خير وحسب شامخ من نحو الحنين على الوطن واهله والابن لمصابه والاقدام على العظام في سبيل القوم ؛ وامثال هؤلاء النوابغ النجباء اذا كثروا في امة يوشك ان يترقى منهم آحاد الى درجة الخوارق فيقودوا امهم

الى النجاح والفلاح ، ولا غرو فان اجتماع نفوذ النسب وقوة الحسب يفعلان
 ولا عجب شبه فعل المستبد العادل الذي ينشده الشريون وخصوصاً المسلمون ؛
 وان كان العقل لا يجوز ان يتصف بالاستبداد مع العدل غير الله وحده ؛ الا
 قاتل الله الهمة الساقطة التي قد تسفل بالانسان الى عدم اتعاب الفكر فيما
 يطلب هل هو ممكن ام هو محال .



الاصلاء باعتبار اكثرتهم هم جرثومة البلاء في كل قبيلة ومن كل قبيل .
 لان بني آدم داموا اخواناً متساوين الى ان ميزت الصدفة بعض افرادهم بكثرة
 النسل فنشأت منها القوات العصبية ؛ ونشأ من تنازعها تميز افراد على افراد ،
 وحفظ هذه الميزة او وجد الاصلاء فالاصلاء في عشيرة او امة اذا كانوا متقاربي
 القوات استبدوا على باقي الناس واستسوا حكومة اشرف ، ومتى وجد بيت
 من الاصلاء يميز كثيراً في القوة على باقي البيوت يستبد وحده ويؤسس
 الحكومة الفردية المقيدة اذا كان لباقي البيوت بقية بأس ، او المطلقة اذا لم
 يبق امامه من يتقيه .

بناء عليه اذا لم يوجد في امة اصلاء بالكلية ، او وجد ولكن كان لسواد
 الناس صوت غالب ، اقامت تلك الامة لنفسها حكومة انتخابية لا وراثة فيها
 ابتداءً ولكن لا يتوالى بضع متولين الا ويصير اناسهم اصلاء يتناظرون ، كل
 فريق منهم يسعى لاجتذاب طرف من الامة استعدادا للمغالبة واعادة التاريخ الاول .

ومن اكبر مزار الاصلاء ، انهم ينهكون اثناء المغالبة على اظهار الابهة
والعظمة ، يسترهبون اعين الناس ويسجرون عقولهم ويتكبرون عليهم .
ثم اذا غلب غالبهم واستبد بالامر لا يتركها الباقون لألفتهم لذتها ولمضاهاة
المستبد في نظر الناس . والمستبد نفسه لا يحملهم على تركها بل يدر عليهم المال
ويعينهم عليها ويعطيهم الالقاب والرتب وشيئاً من النفوذ والتسلط على الناس
ليتلخوا بذلك عن مقاومة استبداده ، ولاجل ان يألفوها مديداً فتفسد
اخلاقهم فينفر منهم الناس ولا يبقى لهم ملجأ غير بابه فيصرون اعوانا له بعد
ان كانوا اضداداً .

ويستعمل المستبد ايضاً مع الاصلاء سياسة الشد والارخاء ، والمنسح
والاعطاء ، والانتفات والاعضاء كي لا يبطروا ، وسياسة القاء الفساد واثارة
الشحناء فيما بينهم كي لا يتفقوا عليه ؛ واثارة يعاقب عقاباً شديداً باسم العدالة
ارضاء للعوام ، واخرى يقرنهم بافراد كانوا يقبلون اذيلهم استكباراً فيجعلهم
سادة عليهم يفر كون آذانهم استحقاراً ، يقصد بذلك كسر شوكتهم امام
امام الناس وعصر انوفهم امام عظمته . والحاصل ان المستبد يذل الاصلاء
بكل وسيلة حتى يجعلهم مترامين دائماً بين رجليه كي يتخذهم لجأماً لتذليل
الرعية ، ويستعمل عين هذه السياسة مع العلماء ورؤساء الاديان الذين متى شم
من احدهم رائحة الغرور بعقله او علمه ينكل به او يستبد له بالاحق الجاهل
يقاظله ولأمثاله من كل ظان من ان ادارة الظلم محتاجة الى شيء من العقل
او الاقتدار فوق مشيئة المستبد . وبهذه السياسة ونحوها يخلو الجوف يعصف

ويذف ويتصرف في الرعية كريس يقبله الصرصر في جو محرق .

المستبد في لحظة جلوسه على عرشه ووضع تاجه الموروث على رأسه يرى نفسه كان انساناً فصار إلهاً . ثم يرجع النظر فيرى نفسه في نفس الامر اعجز من كل عاجز وانه مانال مانال الا بواسطة من حوله من الاعوان ، فيرفع نظره اليهم فيسمع لسان حالهم يقول له : بالعرش وماالتاج وماالصولجان؟ ماهذه الا اوهام في اوهام . هل يجملك هذا الريش في رأسك طاووسا وانت غراب ، ام تظن الاحجار البراقة في تاجك نجوما ورأسك سماء ، ام تتوهم ان زينة صدرك ومنكبيك اخرجتك عن كونك قطعة طين من هذه الارض ؟ والله ماممكنك في هذا المقام وسلطك على رقاب الانام الا شعوذتنا وسحرنا وامتهاننا لديتنا ووجداننا وخياتتنا لوطننا واخواننا فانظر ايها الصغير المكبر الحقير الموقر كيف تعيش معنا !

ثم يلتفت الى جماهير الرعية المتفرجين منهم الطائشين المهلئين المسبحين بحمده ومنهم المسحورين المبهوتين كأنهم اموات من حين ؛ ولكن يتجلى في فكره ان خلال الساكتين بعض افراد عقلاء اجماد يخاطبونه بالعيون بأننا معاشر الامة شؤوننا عمومية وكلناك في قضائها على ما يزيد ونبغي ، لاعلى ما تريد فتبني . فان وفيت حق الوكالة حق لك الاحترام وان مكرت مكرنا وحاقت بك العاقبة الا ان مكر الله عظيم .

وعندئذ يرجع المستبد الى نفسه قائلاً الاعوان الاعوان ، الحملة السدنة اسلمهم القيادة واردفهم بحيش من الاوغاد احارب بهم هؤلاء العبيد العقلاء ،

وبغير هذا الحزم لا يدوم لي ملك كيفما اكون بل ابقى اسيرا للعدل معرضا
للمناقشة منغصاً في نعيم الملك ، ومن العار ان يرضى بذلك من يمكنه ان
يكون سلطانا جباراً متفرداً قهاراً .

الحكومة المستبدة تكون طبعاً مستبدة في كل فروعها من المستبد الاعظم
الى الشرطي ، الى الفراش ، الى كناس الشوارع ؛ ولا يكون كل صنف الا
من اسفل اهل طبقته اخلاقاً لان الاسافل لا يهتمهم طبعاً الكرامة وحسن
السمعة انما غاية مساعهم ان يبرهنوا لمخدومهم بانهم على شاكلته ، وانصار
لدولته ، وشرهون لاكل السقطات من اي كانت ولو بشرا ام خنازير ،
آبائهم ام اعدائهم ، وبهذا يأمنهم المستبد ويأمنونه فيشار كهم ويشار كونه .
وهذه الفئة المستخدمة . يكثر عددها ويقل حسب شدة الاستبداد وخفته ،
فكلما كان المستبد حريصاً على العسف اجتاج الى زيادة جيش المتمجدين
العاملين له المحافظين عليه ، واحتاج الى مزيد الدقة في اتخاذهم من اسفل
المجرمين الذين لا اثر عندهم لدين او ذمة ، واحتاج لحفظ النسبة بينهم في
المراتب بالطريقة المعكوسة وهي ان يكون اسفلهم طباعاً وخصالا اعلام
وظيفة وقرباً ؛ ولهذا لا بد ان يكون الوزير الاعظم للمستبد هو اللئيم الاعظم في
الامة ، ثم من دونه دونه لؤما وهكذا تكون مراتب الوزراء والاعوان
في لؤمهم حسب مراتبهم في التشريفات والقربي منه ، وربما يفتر المطالع
كما اغتر كثير من المؤرخين البسطاء بأن بعض وزراء المستبد يتأوهون
من المستبد ويتشكون من اعماله ويجهرون بعلامه ويظهرون لو انه ساعدهم

الامكان اعمالوا وفعلوا وافتدوا الامة باموالهم بل وحياتهم ؛ فكيف والحالة
هذه يكون هؤلاء اؤماء، بل كيف ذلك وقد وجد منهم الذين خطروا
بانفسهم والذين اقدموا فعلا على مقاومة الاستبداد فنالوا المراد او بعضه
او هلكوا دونه ؟

فجواب ذلك ان المستبد لا يخرج قط عن انه خائن خائف محتاج لمصابة
تعينه وتحميه فهو ووزراءه كزمره لصوص : رئيس واعوان. فهل يجوز
العقل ان ينتخب رفاق من غير اهل الوفاق وهو الذي لا يستوزر الا بعد
تجربة واختبار عمرا طويلا .

هل يمكن ان يكون الوزير متخلقا بالخير حقيقة وبالشر ظاهر افيخدع
المستبد باعماله ولا يخاف من انه كما نصبه واعزه بكلمة يعزله ويندله ؟

بناء عليه فالمستبد وهو من لا يجهد ان الناس اعداؤه لظلمه لا يأمن على
بابه الا من يثق به انه اظلم منه للناس وابد منه عن اعدائه ؛ واما تلوم بعض
الوزراء على لوم المستبد فهو ان لم يكن خداعا للامة فهو حنق على المستبد
لانه بنحس ذلك المتلوم حقه فقدم عليه من هو دونه في خدمته بتضحية دينه .
ووجدانه . وكذلك لا يكون الوزير امينا من صولة المستبد في صحبته مالم
يسبق بينهما وفاق واتفاق على خيرة الشيطان ؛ لان الوزير محسود بالطبع
يتوقع له المزاحمون كل شر ويبغضه الناس ولو تعالظ الملمهم وهو هدف في كل
ساعة للشكايات والوشايات . كيف يكون عند الوزير شي من التقوى او
الحياء او العدل او الحكمة او المروءة او الشفقة على الامة وهو العالم بان

الامة تبغضه وتمقته وتوقع له كل سوء وتشمت بمصائبه فلا ترضى عنه مالم يتفق معها على المستبد وما هو بفاعل ذلك ابدأ الا اذا يئس من اقباله عنده ، وان يئس وفعل فلا يقصد نفع الامة قط ، انما يريد فتح باب لمستبد جديد عساه يستوزره فيؤازره على وزره .

والنتيجة ان وزير المستبد هو وزير المستبد ، لاوزير الامة كما في الحكومات الدستورية . كذلك القائد يحمل سيف المستبد ليغمده في الرقاب بامر المستبد لابامر الامة ؛ بل هو يستعيز من ان تكون الامة صاحبة امر ، لما يعلم من نفسه ان الامة لا تقلد القيادة لمثله .

بناء عليه لا يفتقر العقلاء بما يتشدد به الوزراء والقواد من الانكار على الاستبداد والتفلسف بالاصلاح وان تلهفوا وان تأففوا ولا ينخدعون لمظاهر غيرتهم وان ناحوا وان بكوا . ولا يثقون بهم وبوجدانهم معها صلوا وسبحوا لان ذلك كله ينافي سيرهم وسيرتهم، ولا دليل على انهم اصبحوا يخالفون ماشبوا وشابوا عليه ؛ هم اقرب ان لا يقصدوا بتلك المظاهر غير اطلاق المستبد وتهديد سلطته ليشاركهم في استدرار دماء الرعية اي اموالها . نعم ، كيف يجوز تصديق الوزير والعامل الكبير الذي قد الف عمراً طويلاً لذة البذخ وعزة الجبروت في انه يرضى بالدخول تحت حكم الامة ويخاطر بعرض سيفه عليها فتحله او تكسره تحت ارجلها . اليس هو عضو ظاهر الفساد من جسم تلك الامة التي قتل الاستبداد فيها كل الاميال الشريفة العالية فابمدها عن الانس بالانسانية حتى صار الفلاح التemis منها يؤخذ للجندي وهو يبكي فلا يكاد

يلبس كم السترة العسكرية الا ويتلبس بشر الاخلاق فيتنمر على امه و ابيه
ويتمرد على اهل قريته وذووه ويكظ اسنانه عطشاً للدماء لا يعز بين اخ او
عدو . ان اكابر رجال عهد الاستبداد لا اخلاق لهم ولاذمة، فكل ما يتظاهرون
به احياناً من التذمر والتألم يقصدون به غش الامة المسكينة التي يطعمهم في
انخداعها وانقيادها لهم علمهم بان الاستبداد القاتم بهم والمستمربهمتهم قد
اعمى ابصارها وبصأرها ، وخدر اعصابها فجعلها كاصاب ببحران الحمى
فهي لا ترى غير هول وشدة وآلام ؛ فثمن من البلاء ولا تدري ماهو تداويه
ولا من اين جاء لتصدده ، فتواسيها فئسة من اولئك المتعاطفين باسم الدين
يقولون يا بؤساء : هذا قضاء من السماء لا مرد له قالوا جب تلقيه بالصبر والرضاء
والالتجاء الى الدعاء فاربطوا السنتكم عن الغرور والفضول واربطوا قلوبكم
باهل السكينة والحمول واياكم التدبير فان الله غيور وايمكن وردكم : اللهم
انصر سلطاننا وآمننا في اوطاننا واكشف عنا البلاء انت حسبنا ونعم الوكيل .
ويغرر الامة آخرون من المتكبرين بانهم الاطباء الرحماء المهتمون بمداواة
المرض ؛ انما هم يترقبون سنوح الفرص ، وكلا الفريقين والله اما ادنياء جبناء
اوهم خائنون مخادعون ، يريدون التثبيط والتلييد والامتنان على الظالمين .

من دلائل ان اولئك الاكابر مغررون مخادعون يظهر ونمالا يبطنون ،
انهم لا يستصنعون الا الاسافل الاراذل من الناس ولا يعيولون لغير المتملقين
المنافقين من اهل الدين كما هو شأن صاحبهم المستبد الاكبر ومنها انه قد يوجد
فيهم من لا ينزل لقليل الرشوة او السرقة ؛ ولكن ليس فيهم العفيف عن

الكثير وكفى بما يتمتعون من الثروات الطائلة التي لامنت لها غير الجاه برهاناً
فاضحاً لو كانوا يستحقون . ومنها ان ليس فيهم غير المستبجح المفاخر بمشاركة
المستبد في امتصاص دم الامة ، ذلك باخذهم العطايا الكبيرة والرواتب
الباهظة ، التي تعادل اضعاف ما تسمح به الادارة العادلة لامثالهم لانها ادارة
راشدة لاتدفع اجوراً زائدة . ومنها انهم لا يصرفون شيئاً ولو سراً من هذا
السحت (١) الكثير في سبيل مقاومة الاستبداد الذي يزعمون انهم اعداؤه ،
انما يصرف بعضهم منه شيئاً في الصدقات الطفيفة وبناء المعابد معمة ورياء ،
وكانهم يريدون ان يسرقوا ايضاً قلوب الناس بمدسلب اموالهم او انهم يرشون الله ،
الاساء مايتوهمون . ومنها ان اكثرهم مسرفون مبذرون فلا تكفي اخدم
الرواتب المعتدلة التي يمكن ان ينالها اجرة خدمة لائمن ذمة . ومنها انه قد
يكون اخدم شحيحاً مقترأ في نفقاته بحيث يخل في شرف مقامه فلا يصرف
نصف او ربع راتبه مع انه يقبضه زائداً على اجر مثله لاجل حفظ شرف
المقام العائد لشرف الامة ، وبهذا الشح يكون خائناً ومبيناً . والحاصل ان
الاكابر حريصون على ان يبقى الاستبداد مطلقاً لتبقى ايديهم مطلقة في الاموال .
هذا ولا ينكر التاريخ ان الزمان اوجد نادراً بعض وزراء وازروا
الاستبداد عمراً طويلاً ثم ندموا على ما فرطوا فتابوا واناوبوا ، ورجعوا لصف
الامة واستعدوا باموالهم وانقسم لانقاذها من داء الاستبداد . ولهذا لا يجوز

(١) السحت : المال الحرام

اليأس من وجود بعض افراد من الوزراء والقواد عريقين في الشهامة ؛
فيظهر فيهم سر الوراثة ولو بعد بطون او بعد الاربعين وربما السبعين من
اعمارهم ظهوراً بيناً تلاً في محيا صاحبه ثريا صدق النجابة . ولا ينبغي لأمة
ان تتكل على ان يظهر فيها امثال هؤلاء ؛ لان وجودهم من نوع الصدف التي
لا تبني عليها آمال ولا احلام .

والنتيجة ان المستبد فرد عاجز لاحول له ولا قوة الا بالمتمجدين ،
والامة ، اي امة كانت ، ليس لها من يحك جلدها غير ظفرها ولا يقودها الا
المقلاء بالتنوير والاهداء والثبات ، حتى اذا ما كفت سماء عقول بنها
قيض الله لها من جمعهم الكبار افراداً كبار النفوس قادة ابراراً يشتركون لها
السعادة بشقائهم والحياة بموتهم ، حيث يكون الله جعل في ذلك لذتهم ومثل
تلك الشهادة الشريفة خلقهم كما خلق رجال عهد الاستبداد فساقاً فجاراً
مهاككهم الشهوات والمثالب . فسبحان الذي يختار من يشاء لما يشاء وهو
الخالق العظيم .

الاستبداد والمال

الاستبداد لو كان رجلا واراد ان يحتسب وينتسب لقال: وانا الشر وابي
الظلم وامى الاساءة واخي الغدر واختى المسكنة وعمى الضر^ه وخالى الذل
وابني الفقر وبنتى البطالة وعشيرتي الجهالة ووطني الخراب ، اما ديني وشرفي
وحياتي فالمال المال المال .

المال يصح في وصفه ان يقال : القوة مال ، والوقت مال ، والعقل مال ،
والعلم مال ، والدين مال ، والثبات مال ، والجاه مال ، والجمال مال ، والترتيب
مال ، والاقتصاد مال ، والشهرة مال ، والحاصل كل ما ينتفع به في الحياة هو مال .
وكل ذلك يباع ويشترى اي يستبدل بعضه ببعض ، وموازن المعادلة هي :
الحاجة والعزة والوقت والتعب ، ومحافظة اليد والفضة والذهب والذمة ،
وسوقه المجتمعات وشيخ السوق السلطان . . . فانظر في سوق يتحكم فيه
مستبد يأمر زيدا بالبيع وينهى عمروا عن الشراء ويغصب بكراماله ويحابي
خالدا من مال الناس .

المال تعوره الاحكام ، فمنه الحلال ومنه الحرام وهما بينان ولنعم الحاكم

فيها الوجدان ؛ فالللال الطيب ما كان عوض اعيان ، او اجرة اعمال ، او بدل وقت او مقابل ضمان . والمال الخبيث الحرام هو ثمن الشرف ، ثم المغصوب ، ثم المسروق ، ثم المأخوذ الجاء (١) ثم المحتال فيه .

ان النظام الطبيعي في كل الحيوانات حتى في السمك والهوام ، الاثني العنكبوت ، ان النوع الواحد منها لا يأكل بعضه بعضاً والانسان يأكل الانسان . ومن غريزة سائر الحيوان ان يلتمس الرزق من الله اي من مورده الطبيعي ، وهذا الانسان الظالم نفسه حريص على اختطافه من يداخيه ، بل من فيه ، بل كم اكل الانسان الانسان !

الاستعداد والانسان :

عاش الانسان دهرأ طويلاً يتلذذ بلحم الانسان ويتلذذ بدمائه الى ان تمكن الحكماء في الصين ثم الهند من ابطال اكل اللحم كلياً سدا للباب كما هو دأبهم الى الآن . ثم جاءت الشرائع الدينية الاولى في غربي آسيا بتخصيص مايؤكل من الانسان بأسير الحرب ثم بالقربان ينذر للمعبود ويذبح على يد الكهان . ثم ابطال اكل لحم القربان وجعل طعمة للنيران وهكذا تدرج الانسان الى نسيان لذة لحم اخوانه ، وما كان لينسى عبادة اوراق الدماء لولا ان ابراهيم شيخ الانبياء استبدل قربان البشر بالحيوان واتبعه موسى عليها

(١) الاجاء : جعل المال لبعض الورثة دون الآخرين .

السلام وبه جاء الاسلام . وهكذا بطل هذا العدوان بهذا الشكل الا في
اواسط افريقيا عند (النامانام) .

الاستبداد المشؤوم لم يرض ان يقتل الانسان الانسان ذبحاً لياكل لحمه اكلا
كما كان يفعل الهمج الاولون ، بل تفنن في الظلم : فالمستبدون يأسرون
جماعتهم وينجحونهم فصداً بمبضع الظلم ، ويمتصون دماء حياتهم بفصب اموالهم ،
ويقصرون اعمارهم باستخدامهم سخرة في اعمالهم ، او بفصب ثمرات ايمانهم .
وهكذا لافرق بين الاواين والآخرين في نهب الاعمار وازهاق الارواح
الا في الشكل .



ان بحث الاستبداد والمال بحث قوي العلاقة بالظلم القسام في فطرة
الانسان، ولهذا رأيت ان لا بأس في الاستطراد لمقدمات تتعلق نتائجها بالاستبداد
الاجتماعي المحمى بقلاع الاستبداد السياسي، فمن ذلك :
ان البشر المقدر مجموعهم بألف وخمسة مليون نصفهم ككل على النصف
الآخر ويشكل اكثرية هذا النصف الكتل نساء المدن . ومن النساء ؟ النساء
هن النوع الذي عرف مقامه في الطبيعة بأنه هو الحافظ لبقاء الجنس ، وانه
يسكني للآلف منه ملقح واحد ، وان باقي الذكور حظهم ان يساقوا للمخاطر
والمشاق او هم يستحقون ما يستحقه ذكر النحل وبهذا النظر اقتسمت النساء
مع الذكور اعمال الحياة قسمة ضيزى ؛ وتمكن بسن قانون عام به جعلت

نصيبهن حين الاشغال بدعوى الضعف ، وجعلن نوعهن مطلوباً عزيزاً بايهاهم العفة ، وجعلن الشجاعة والكرم سيئتين فيهن محمدتين في الرجال ، وجعلن نوعهن يهين ولايهان ويظلم او يُظلم فيعان ؛ وعلى هذا القانون يرون البنات والبنين ويتلاعبن بمقول الرجال كما يشأن حتى انهن جعلن الذكور يتوهمون انهن اجمل منهم صورة . والحاصل انه قد اصاب من سماهن بالنصف المضرب ! ومن المشاهد ان ضرر النساء بالرجال يترقى مع الحضارة والمدنية على نسبة الترقى المضاعف . فالبدوية تشارك الرجل مناصفة في الاعمال والثمرات فتعيش كما يعيش ، والحضرية تسلب الرجل لاجل معيشتها وزينتها اثنين من ثلاث وتعيته في اعمال البيت . والمدنية تسلب ثلاثة من اربعة وتود ان لاتخرج من الفراش ، وهكذا تترقى بنات العواصم في اسر الرجال . وما صدق بالمدنية الحاضرة في اوربا ان تسمى المدنية النسائية لان الرجال فيها صاروا انعاما للنساء .

ثم ان الرجال تقاسموا مشاق الحياة قسمة ظالمة ايضاً ، فان اهل السياسة والاديان ومن يلتحق بهم وعددهم لا يبلغ الخمسة في المائة ، يتمتعون بنصف ما يتجمد من دم البشر او زيادة ، ينفقون ذلك في الرفه والاسراف مثال ذلك انهم يزينون الشوارع بملايين من المصابيح لمروهم فيها احياناً متراوحين بين الملاهي والمواخير ولا يفكرون في ملايين من الفقراء يعيشون في بيوتهم في ظلام .

ثم اهل الصنائع النفيسة والكمالية والتجار الشبهون والمحتكرون

وامثال هذه الطبقة ويقدرون كذلك بخمسة في المائة ، يعيش احدهم بمثل ما يعيش به العشرات او المئات او الالوف من الصناع والزراع . وجرثومة هذه القسمة المتفاوتة المتباعدة الظالمة هي الاستبداد لاغيره . وهناك اصناف من الناس لا يعملون الا قليلا ؛ انما يعيشون بالحيلة كالسهمسة والمشعوذين باسم الادب او الدين ، وهؤلاء يقدرون بخمسة عشر في المئة او يزيدون على اولئك .
نعم لا يقتضي ان يتساوى العالم الذي صرف زهوة حياته في تحصيل العلم النافع او الصنعة المفيدة بذلك الجاهل النائم في ظل الحائط ولا ذاك التاجر المجتهد المخاطر بالكسول الخامل ، ولكن العدالة تقتضي غير ذلك التفاوت بل تقتضي الانسانية ان يأخذ الراقي بيد السافل فيقربه من منزلته ويقاربه في معيشته ويعينه على الاستقلال في حياته .

لا ! لا ! لا يطلب الفقير معاونة الغني ، انما يرجوه ان لا يظلمه ، ولا يلتبس منه الرحمة ، انما يلتبس العدالة ؛ لا يؤمل منه الانصاف ، انما يسأله ان لا يمته في ميدان مزاحمة الحياة .

بسط المولى جلت حكمته سلطان الانسان على الاكوان فطنى وبغى ونسى ربه وعبد المال والجمال وجعلها منيته ومبتغاه ، كأنه خلق خادما لبطنه وعضوه فقط ، لاشأن له غير الغذاء والتحكك ، وبالنظر الى ان المال هو الوسيلة الموصلة للجمال كاد ينحصر اكبر هم الانسان في جمع المال ولهذا يكنى عنه بمعبود الامم وبسر الوجود ؛ وروى (كريسكوا) المؤرخ الروسي ان كارينا شكت كسل رعيها فارشدها شيطانها الى حمل النساء على الخلاعة

فعلت واحداثت كسوة المراقص ، فب الشبان للعمل وكسب المال لصفه
على ربات الجمال وفي ظرف خمس سنين تضاعف دخل خزنتها فأتسع لها مجال
الاسراف . وهكذا المستبدون لا تهتمهم الاخلاق انما تهتمهم المال .



المال عند الاقتصاديين ما ينتفع به الانسان ، وعند الحقوقيين ما يجري فيه
المنع والبذل ، وعند السياسيين ما تستعاض به القوة ، وعند الاخلاقيين ما تحفظ
به الحياة الشريفة . المال يستمد من الفيض الذي اودعه الله تعالى في الطبيعة
ونواميسها ؛ ولا يملك اي لا تخصص بانسان الا بعمل فيه او في مقابله .

والمقصود من المال هو احد اثنين لثالث لهما وهما : تحصيل لذة او دفع
الم ، وفيها تنحصر كل مقاصد الانسان وعليةا مبنى احكام الشرائع كلها ؛
والحاكم المعتدل في طيب المال وخبثته هو الوجدان الذي خلقه الله صبغة
لتنفس وعبر عنه في القرآن بالهامها فجورها وتقواها ؛ فالوجدان خير بين
المال الحلال والمال الحرام .

ثم ان اعمال البشر في تحصيل المال يرجع الى ثلاثة اصول : ١- استحضاره
المواد الاصلية ؛ ٢- تهيئته المواد للانتفاع بها ؛ ٣- توزيعها على الناس . وهي
الاصول التي تسمى بالزراعة والصناعة والتجارة ، وكل وسيلة خارجة عن
هذه الاصول وفروعها الاولية فهي وسائل ظالمة لا خير فيها .
التمول ، اي ادخار المال ، طبيعة في بعض انواع الحيوانات الدينية

كالثمل والنحل ولا اثر له في الحيوانات الرنقية غير الانسان . الانسان تطوع على التمول لدواعي الحاجة المحقة او الموهومة ؛ ولا تحقق للحاجة الا عند سكان الاراضي الضيقة الثمرات على اهلها ، او الاراضي المعرضة للققط في بعض السنين . ويلتحق بالحاجة المحقة حاجة العاجزين جسماعن الارتزاق في البلاد المبتلاة بمجور الطبيعة او جور الاستبداد ؛ وربما يلتحق بها ايضاً الضرف على المضطرين وعلى المصارف العمومية في البلاد التي ينقصها الانتظام العام .

والمراد بالانتظام العام مهيئة الاشتراك العمومي التي اسسها الانجيل بتخصيصه عشر الاموال للمساكين ؛ ولكن لم يكد يخرج ذلك من القوة الى الفعل . ثم احدث الاسلام سنة الاشتراك على اتم نظام ولكن لم تدم ايضاً اكثر من قرن واحد كان فيه المسلمون لا يجدون من يدفعون لهم الصدقات والكفارات . وذلك ان الاسلامية ، كما سبق بيانه ، اسست حكومة ارسنقراطية المنى ، ديموقراطية الادارة ، فوضعت للبشر قانوناً مؤسساً على قاعدة : ان المال هو قيمة الاعمال ولا يجتمع في يد الاغنياء الا بانواع من الغلبة والخذاع .

فالعدالة المطلقة تقضى ان يؤخذ قسم من مال الاغنياء ويرد على الفقراء ؛ بحيث يحصل التعديل ولا يموت النشاط للعمل . وهذه القاعدة يتمنى ما هو من نوعها اغلب العالم المتمدن الافرنجي وتسمى وراها الان جمعيات منهم منتظمة مكونة من ملايين كثيرة . وهذه الجمعيات تقصد حصول التساوي او

التقارب في الحقوق والحالة المعاشية بين البشر ؛ وتسعى ضد الاستبداد المالي فتطلب ان تكون الاراضي والاملاك الثابتة وآلات المعامل الصناعية الكبيرة مشتركة الشيوع بين عامة الامة ، وان الاعمال والثمرات تكون موزعة بوجوه متقاربة بين الجميع ، وان الحكومة تضع قوانين لكافة الشؤون حتى الجزئيات وتقوم بتنفيذها .

وهذه الاصول مع بعض التعديل قررتها الاسلامية دينا وذلك انها قررت :

(اولا) = انواع المشور والزكاة وتقسيمها على انواع المصارف العامة وانواع المحتاجين حتى المدينين . ولا يخفى على المدقق ان جزءا من اربعين من رؤوس الاموال يقارب نصف الارباح المعتدلة باعتبار انها خمسة بالمائة سنويا ؛ وبهذا النظر يكون الاغنياء مضاربون للجماعة مناصفة . وهكذا يلحق فقراء الامة باغنيائها ، ويمنع تراكم الثروات المفرطة المولدة للاستبداد ، المضرة باخلاق الافراد .

(ثانياً) = قررت احكام محكمة تمنع محذور التواكل في الارتزاق ، وتلزم كل فرد من الامة متى اشتد ساعده او ملك قوت يومه او النصاب على الاكثر ، ان يسمي لرزقه بنفسه او يموت جوعا ، وقد لايتأتى ان يموت الفرد جوعا اذا لم تكن حكومته مستبدة تضرب على يده وسعيه ونشاطه بمدافع استبدادها ، وقد قيل : يبدأ الانقياد للعمل عند نهاية الخوف من الحكومة ونهاية الاتكال على الغير .

(ثالثاً) = قررت الاسلامية ترك الاراضي الزراعية ملكاً لعامة الامة، يستنتجها ويستمتع بخيراتها العاملون فيها بانفسهم فقط ، وليس عليهم غير العشر او الخراج الذي لا يجوز ان يتجاوز الخمس لبيت المال .

(رابعاً) = جاءت الاسلامية بقواعد شرعية كلية تصلح للاحاطة باحكام كافة الشؤون حتى الجزئية الشخصية ، وانا طت تنفيذها بالحكومة ، كما تطلبه الآن اغلب جمعيات الاشتراكيين . على ان هذا النظام الذي جاء به الاسلام ، صعب الاجراء جداً ، لانه منوط بسيطرة الكل ورضاء الاكثر وهيئات . . . ولان هناك منافع ادبية يمرر توزيعها ولا تتسامح فيها النفوس ، ولان القانون الكثير الفروع يتعذر حفظه بسيطاً ، ويكون معرضاً للتأويل حسب الاغراض ، وللاختلاف في تطبيقه حسب الالهواء ، كما وقع فعلاً في المسلمين ، فلم يمكنهم اجراء شريعتهم ببساطة وامانة الا عهداً قليلاً ، ثم تشعبت معهم الامور بطبيعة اتساع الملك واختلاف طبائع الامم ، وفقد الرجال الذين يمكنهم ان يسوقوا مئات ملايين من اجناس الناس: الابيض والاصفر ، والحضري والبدوي ، بمصا واحدة قروناً عديدة .

ولا غرو اذا كانت المعيشة الاشتراكية على ابداع ما يتصوره العقل ، ولكن مع الاسف لم يبلغ البشر بعد من الترقى ما يكفي لتوسيعهم نظام التعاون والتضامن في المعيشة العائلية الى ادارة الامم الكبيرة . وكم جربت الامم ذلك فلم تنجح فيها الا الامم الصغيرة مدة قليلة . والسبب كما تقدم هو مجرد صعوبة التحليل والتركييب بين الصوالح والمصالح الكثيرة المختلفة . والتأمل

في عدم انتظام حالة العائلات الكبيرة ، يقنع حالا بأن التكافل والتضامن غير ميسورين في الامم الكبيرة ؛ ولهذا يكون خير حل مقدور المسألة الاجتماعية هو ما يأتي :

- ١ - يكون الانسان حراً مستقلاً في شؤونه كأنه خلق وحده .
- ٢ - تكون العائلة مستقلة كأنها امة وحدها .
- ٣ - تكون القرية او المدينة مستقلة كأنها قارة واحدة لاعلاقة لها بغيرها .
- ٤ - تكون القبائل في الشعب او الاقاليم في المملكة كأنها افلاك كل منها مستقل في ذاته ، لايربطها بمركز نظامها الاجتماعي وهو الجنس او الدين او الملك غير محض التجاذب المانع من الوقوع في نظام آخر لا يلائم طبائع حياتها



ثم ان التمويل لاجل الحاجات السالفة الذكر وبقدرها فقط محمود بثلاثة شروط والا كان حرص التمويل من اقباح الخصال :

الشرط الاول : ان يكون احراز المال بوجه مشروع حلال ، اي باحرازه من بذل الطبيعة ، او بالعاوضة ، او في مقابل عمل او في مقابل ضمان على ما تقوم بتفصيلا الشرائع المدنية .

والشرط الثاني : ان لا يكون في النمل تضيق على حاجيات الغير كاحتكار الضروريات ، او مزاحمة الصانع والعمال الضعفاء ، او التغلب على المباحات مثل امتلاك الاراضي التي جعلها خالقها ممرحاً بكافة مخلوقاته وهي امهم ترضعهم لبن جهازاتها وتغذيهم بشمراتها وتأويهم في حضن اجزائها ؛ فجاء المستبدون الظالمون الاولون ووضعوا اصولاً لحمايتها من ابناءها وحلوا بينها . فهذه ارنلدا مثلاً قد حماها الف مستبد مالي من الانكليز ، ليتمتعوا بثلي او ثلاثة ارباع ثمرات اتعاب عشرة ملايين من البشر الذين خلقوا من تربة ارنلدا . وهذه مصر وغيرها تقرب من ذلك حالاً وستفوقها مالا ؛ وكم من البشر في اوروبا المتمدنة وخصوصاً في لندرة وباريس لا يجد احدهم ارضاً ينام عليها متمدداً ، بل ينامون في الطبقة السفلى من البيوت حيث لا ينام البقر ، وهم قاعدون صفوفا يعتمدون بصدورهم على جبال من مسد منسوبة افقية يتلوون عليها يمنة ويسرة .

وحكومة الصين المختلة النظام في نظر المتمدنين لاتجيز قوانينها ان يمتلك الشخص الواحد اكثر من مقدار معين من الارض لا يتجاوز العشرين كيلو متراً مربعاً اي نحو خمسة افدن مصرية او ثلاثة عشر دونماً عثمانياً . وروسيا المستبدة القاسية في عرف اكثر الاوروبيين وضعت اخيراً لولاياتها البولونية والغربية قانوناً اشبه بقانون الصين ؛ وزادت عليه انها منعت سماع دعوى دين غير مسجل على فلاح ، ولا تأذن لفلاح ان يستدين اكثر من نحو خمسمائة فرنك . وحكومات الشرق اذا لم تستدرك الامر فتضع قانوناً من

قبيل قانون روسيا ، تصبح الاراضي الزراعية بعد خمسين عاما او قرن على الاكثر كابرلاندة الانكليزية المسكينة ، التي وجدت لها في مدي ثلاثة قرون شخصا واحداً حاول ان يرحمها فلم يفلح واعني به غلادستون، على ان الشرق ربما لايجد في ثلاثين قرنا من يلتمس له الرحمة .

والشرط الثالث لجواز التمول ، هو : الا يتجاوز المال قدر الحاجة
بكثير لان افراط الثروة مهلكة للاخلاق الحميدة في الانسان وهذا معنى الآية :
(ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى) ، والشرائع السماوية كلها وكذلك الحكمة الاخلاقية والعمرانية حرم من الربا صيانة ل اخلاق المرابين من الفساد، لان الربا هو كسب بدون مقابل مادي ففيه معنى الغصب ، وبدون عمل لان المرابي يكسب وهو نائم ففيه الالفة على البطالة ، ومن دون تعرض لخسائر طبيعية كالتيجارة والزراعة والاملاك ففيه النماء المطلق المؤدي لانحصار الثروات .
ومن القواعد الاقتصادية المتفق عليها ان ليس من كسب لا عار ولا احتكار فيه اربح من الربا مها كان معتدلا ، وان بالربا تربو الثروات فيختل التساوي او التقارب بين الناس . وقد نظر المليون وبعض الاقتصاديين من انصار الاستبداد في امر الربا فقالوا ان المعتدل منه نافع بل لا بد منه . اولاً : لاجل قيام المعاملات الكبيرة ، وثانياً : لاجل ان النقود الموجودة لا تكفي للتداول فكيف اذا امسك المكتنزون قسماً منها ايضا . وثالثاً : لاجل ان كثيرين من الممولين لا يعرفون طرائق الاسترباح او لا يقدرّون عليها ؛ كما ان كثيراً من العارفين بها لا يجردون رؤوس اموال ولا شركاء عنان . فهذا النظر

صحيح من وجه انماء ثروات بعض الافراد . اما السياسيون الاشتراكيون
المبادئ والاخلاقيون ، فينظرون الى ان ضرر الثروات الافردية في
جمهور الامم اكبر من نفعها . لانها تمكن الاستبداد الداخلي فتجعل الناس
صنفين : عبيدا واسبادا ، وتقوى الاستبداد الخارجي فتسهل للامم التي تغني
بغناء افرادها التعدي على حرية واستقلال الامم الضعيفة . وهذه مقاصد
فاسدة في نظر الحكمة والمدالة ولذلك يقتضي تحريم الربا تحريماً مطلقاً .



حرص التمول ، وهو الطمع القبيح ، يخف كثيراً عند اهالي الحكومات
العادلة المنتظمة مالم يكن فساد الاخلاق متغلباً على الاهالي كماكثر الامم
المتمدنة في عهدنا ؛ لان فساد الاخلاق يزيد في الميل الى التمول في نسبة الحاجة
الاسرافية ؛ ولكن تحصيل الثروة الطائلة في عهدالحكومة العادلة عسير جداً ،
وقد لايتأتى الا من طريق المراهبة مع الامم المنحطة او التجارة الكبيرة التي
فيها نوع احتكار ، او الاستعمار في البلاد البعيدة مع المخاطرات ، على ان هذه
الصعوبة تكون مقرونة بلذة عظيمة من نوع لذة من يأكل مايطبخ او
يسكن مابنى .

وحرص التمول القبيح يشتد كثيراً في رؤوس الناس في عهدالحكومات
المستبدة حيث يسهل فيها تحصيل الثروة بالسرقة من بيت المال ، وبالتعدي على
الحقوق العامة ، وبغصب مافي ايدي الضعفاء ، ورأس مال ذلك هو ان يترك

الانسان الدين والوجدان والحياء جانباً وينحط في اخلاقه الى ملائمة المستبد الاعظم او احد اعوانه وعماله ، ويكفيه وسيلة ان يتصل بباب احدهم ويتقرب من اعتابه ويظهر له انه في الاخلاق من امثاله ، وعلى شاكلته ، ويبرهن له ذلك بشيء من التملق وشهادة الزور ، وخدمة الشهوات ، واتجسس ، والدلالة على السلب ونحو ذلك . ثم قد يطلع هذا المنتسب على بعض الخفيايا والاسرار التي يخاف رجال الاستبداد من ظهورها خوفاً حقيقياً او وهمياً ، فيكسب المنتسب رسوخ القدم ويصير هو باباً لغيره ، وهكذا يحصل على الثروة الطائلة اذا ساعدته الظروف على الثبات طويلاً . وهذا اعظم ابواب الثروة في الشرق والغرب ، وويله الاتجار بالدين ثم الملاهي ثم الربا الفاحش وهي بئس المكاسب وبئس ما تؤثر في افساد اخلاق الامم .

وقد ذكر المدققون ان ثروة بعض الافراد في الحكومات العادلة اضر كثيراً منها في الحكومات المستبدة لان الاغنياء في الاولى يصرفون قوتهم المالية في افساد اخلاق الناس واخلال المساواة وابتعاد الاستبداد ؛ اما الاغنياء في الحكومات المستبدة فيصرفون ثروتهم في الابهة والتعظيم ارهاباً للناس وتعيضاً للسفالة الحقيقية المنصبة عليهم بالتعالي الباطل ويسرفون الاموال في الفسق والفجور .

بناءً عليه ثروة هؤلاء تتعجلها الزوال حيث يغصبها الاقوى منهم من الاضعف ، وقد يسلبها المستبد الاعظم في لحظة وبكلمة . وتزول ايضا والحمد لله قبل ان يتعلم اصحابها او ورثتهم كيف تحفظ الثروات وكيف تنمو

وكيف يستعبدون بها الناس استعباداً اصولياً مستحكما ، كما هو الحال في اورو بالتمتدنة المهدة بشروط الفوضويين بسبب اليأس من مقاومة الاستبداد المالي فيها .

ومن طبائع الاستبداد انه لا يظهر فيه اثر فقر الامة ظهوراً بيننا الافجأة قُريب قضاء الاستبداد بحبه . واسباب ذلك ان الناس يقتصدون في النسل وتكثر وفياتهم ويكثر تغربهم ، وبيعون املاكهم من الاجانب فتقلص الثروة وتكثر النقود بين الايدي . وبُست من ثروة وتعود تشبه نشوة المذبوح .



وانرجع الى بحث طبيعة الاستبداد في مطلق المال فأقول : ان الاستبداد يجعل المال في ايدي الناس عرضة لسلب المستبد واعوانه وعماله غصبا ، او بحجة باطلة ؛ وعرضة ايضاً لسلب المعتدين من اللصوص والمحتالين الراتمين في ظل امان الادارة الاستبدادية . وحيث المال لا يحصل الا بالمشقة فلا تختار النفوس الاقدام على المتاعب مع عدم الامن على الانتفاع بالثمرة .

حفظ المال في عهد الادارة المستبدة اصعب من كسبه ، لان ظهور اثره على صاحبه مجلبة لانواع البلاء عليه ، ولذلك يضطر الناس زمن الاستبداد لاختفاء نعمة الله والتظاهر بالفقر والفاقة ؛ ولهذا ورد في امثال الاسراء ان حفظ درهم من الذهب يحتاج الى قنطار من العقل ، وان العاقل من يخفي ذهبه وذهابه ومذهبه ، وان اسعد الناس الصعلوك الذي لا يعرف الحكام

ولا يعرفونه .

ومن طبائع الاستبداد ان الاغنياء اعداؤه فكراً واولاده عملاً ؛ فهم ربائط المستبد يذلمهم فيؤنون ويستدرهم فيحنون ، ولهذا يرسخ الذل في الامم التي يكثر اغنياؤها . اما الفقراء فيخافهم المستبد خوف النعجة من الذئب ، ويتجنب اليهم ببعض الاعمال التي ظاهرها الرأفة ، يقصد بذلك ان يفصّب ايضاً قلوبهم التي لا يملكون غيرها . والفقراء كذلك يخافونه خوف دناءة ونذالة ، خوف البغاث من العقاب ، فهم لا يجسرون على الافتكار فضلا عن الانكار ، كأنهم يتوهمون ان داخل رؤوسهم جواسيس عليهم . وقد يبلغ فساد الاخلاق في الفقراء ان يسرم فعلا رضاء المستبد عنهم باي وجه كان رضاؤه .

وقد خالف الاخلاقيون المتأخرون اسلافهم في قولهم ليس الفقر بيبس ، فقالوا : الفقر ابو المعائب لانه مفتقر للغير والغناء استغناء عن الناس ؛ ثم قالوا : الفقر يذهب بعزة النفس ويفضي الى خلع الحياء ؛ وقالوا : ان لحسن اللباس والامتعة والتنعم في المعيشة تأثير مهم على نفوس البشر ، خلافا لمن يقول ليس المرء بطليسانه ؛ وحديث (احشوشنوا فان النعم لاتدوم) هو لانه يحمل على التعود جسما على المشاق في الحروب والاسفار وعند الحاجة . وقالوا : ان رغد العيش ونعيمه ان اعظم الحاجات ، به تملو الهمة ولاجله تقتحم العظام .

يقال في مدح المال : ان اكبر مايحمل المشكلات الزمان والمال . القوة

كانت للعصبية ثم صارت للعلم ثم صارت للمال . العلم والمال يطيلان عمر الانسان حيث يجملان شيخوخته كشبابه . لا يصاب الشرف الا بالدم ولا يتأتى العز الا بالمال . قد مضى مجد الرجال وجاء مجد المال . وورد في الاثر : ان اليد العليا خير من اليد السفلى . وان الغني الشاكر افضل من الفقير الصابر . ولم يكن قديماً اهمية للثروة العمومية ، اما الآن وقد صارت المحاربات محض مناجلات علم ومال ، فاصبح للثروة العمومية اهمية عظيمة لاجل حفظ الاستقلال ؛ على ان الامم المأسورة لانصيب لها من الثروة العمومية بل منزلتها في المجتمع الانساني كأنعام تنقلها الايدي ؛ ولا تعارض هذه القاعدة ثروة اليهود لانها ثروة غير مزاحمين عليها ، لانها فيما يقوله اعداؤهم فيها : ثروة رأسمالها الناموس ومصرفها الملاهي والمقامرة والربا والغش والمضاربات ؛ ولا يخلو هذا القول من التحامل عليهم حسداً ممن يقدمون اقدمهم ولا يبالون مناهم .

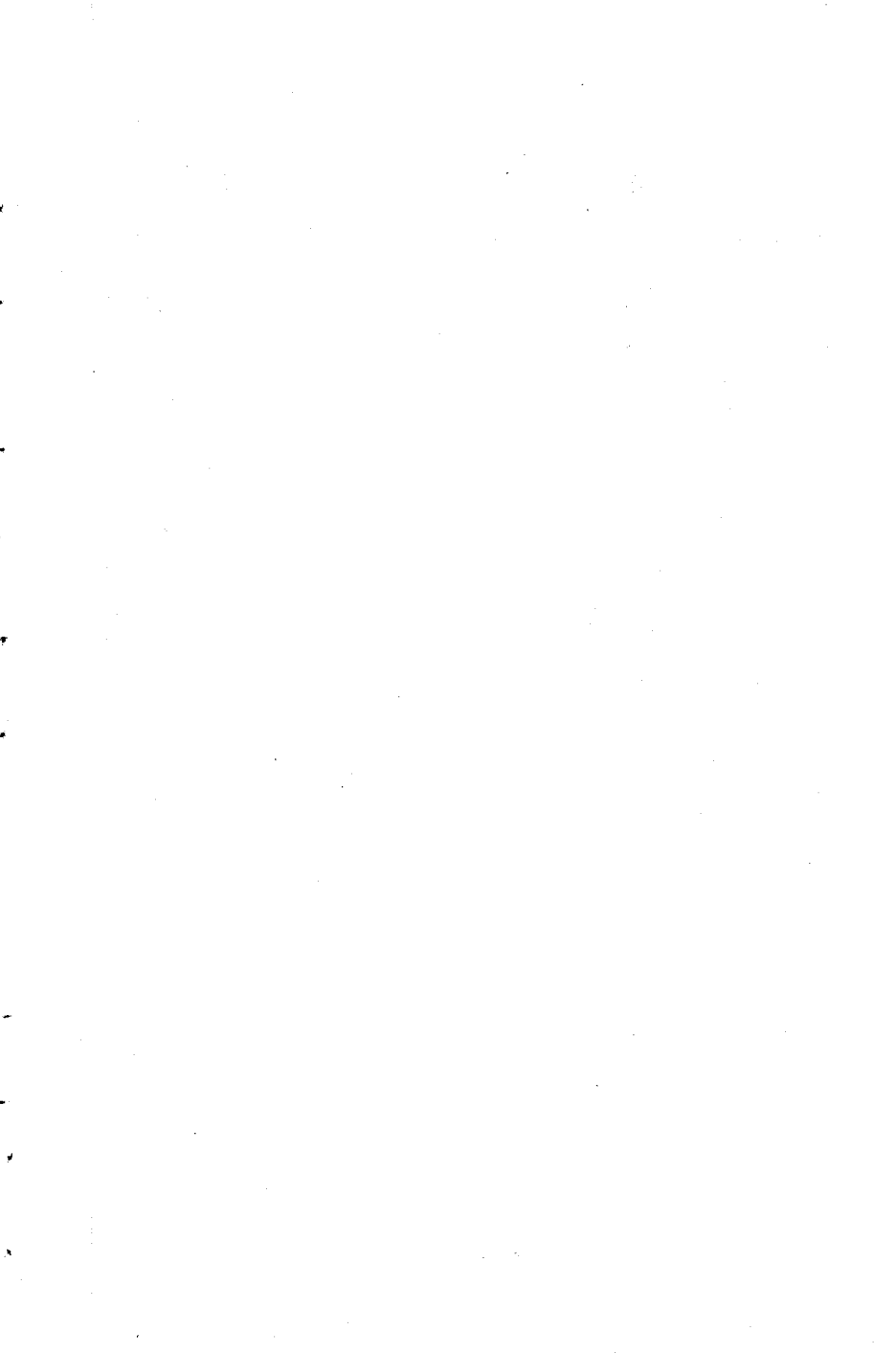
هذا والمال الكثير آفات على الحياة الشريفة ترتد منها فرائص اهل الفضيلة والكمال ، الذين يفضلون الكفاف من الرزق مع حفظ الحرية والشرف على امتلاك دواعي الترف والسرف ، وينظرون الى المال الزائد عن الحاجة الكمالية انه بلاء في بلاء في بلاء ، اي انه بلاء من حيث التعب في تحصيله ، وبلاء من حيث القلق على حفظه ، وبلاء من حيث الافتكار بانماه ؛ واما المكتبة في فيعيش مطمئناً مستريحاً اميناً بهض الامن على دينه وشرفه واخلاقه .

قرر الاخلاقيون ان الانسان لا يكون حراً تماماً لم تكن له صنعة مستقل فيها ، اي غير مرؤوس لاحد ، لان حريته الشخصية تكون تابعة لارتباطه بالرؤساء ، وعليه تكون اقباح الوظائف هي وظائف الحكومة . وقالوا ان للصنعة تأثير في الاخلاق والاميال ، وهي من اصدق ما يستدل به على احوال الافراد والاقوام . فالوظفون في الحكومة مثلاً يفقدون الشفقة والمواطف العالية تبعاً لصنعتهم التي من مقتضاها عدم الشعور بتبعة اعمالهم . وقال الحكماء ان العاجز يجمع المال بالتقتير والكريم يجمعه بالكسب ؛ وقالوا ان اقل كسب يرضى به العاقل مايكفي معاشه باقتصاد ، وقالوا خير المال مايكفي صاحبه ذل القلة وطغيان الكثرة . وهذا معنى الحديث (فاز الخفون) وحديث (اسألوا الله الكفاف من الرزق) . ويقال الغني غنى القلب ، والغني من قلت حاجته ، والغني من استغنى عن الناس . وقال بعض الحكماء كل انسان فقير بالطبع ينقصه مثل ما يملك ، فمن يملك عشرة يري نفسه محتاجا لعشرة اخرى ، ومن يملك الفا يري نفسه محتاجا لالف اخرى . وهذا معنى الحديث : (لو كان لابن آدم واديا من ذهب لمتى ان يكون له واديان) .

ولا يقصد الاخلاقيون من التزهيد في المال التثبيط عن كسبه ، انما يقصدون ان لا يتجاوز كسبه الطرائق الطبيعية الشريفة . اما السياسيون فلا يهمهم الا ان تستغني الرعية بأي وسيلة كانت ؛ والغريون منهم يعينون الامة على الكسب ليشار كونها ، والشرقيون لا يفكرون في غير سلب الموجود ؛ وهذه من جملة الفروق بين الاستبدادين الغربي والشرقي التي منها ان الاستبداد

الغربي يكون احكم وارسخ واشد وطأة ولكن مع اللين ، والشرقي يكون
مقلقا سريع الزوال ولكنه مزعجا . ومنها ان الاستبداد الغربي اذا زال
تبدل بحكومة عادلة تقيم مساعدت الظروف ان تقسيم ، اما الشرقي فيزول
ويخلفه استبداد شر منه لان من دأب الشرقيين ان لا يفتكروا في مستقبل
قريب ؛ كأن اكبر همهم منصرف الى ما بعد الموت فقط ، او انهم مبتلون
بقصر البصر .

و خلاصة القول ان الاستبداد اشد وطأة من الوباء ، اكثر هولاً من
الحريق ، اعظم تخريباً من السيل ، اذل للنفوس من السؤال . داء اذا نزل
يقوم سمعت ارواحهم هاتف السماء ينادى القضاء والقضاء والارض تناجي ربها
بكشف البلاء . الاستبداد عهد اشق الناس فيه العقلاء والاعنياء ، واسعدهم
بعجياهم الجهلاء والفقراء ، بل اسعدهم اوائك الذين يتعجلهم الموت فيحسد
الاحياء .



الاستبداد والاضيق

الاستبداد يتصرف في اكثر الاميال الطبيعية والاخلاق الحسنة ، فيضعفها او يفسدها او يحوها فيجعل الانسان يكفر بنعم مولاه ، لانه لم يملكها حق الملك ليحمده عليها حق الحمد ، ويجمله حاقداً على قومه لانهم عون لبلاء الاستبداد عليه ؛ وفاقد حب وطنه ، لانه غير آمن على الاستقرار فيه ويود لو انتقل منه ؛ وضعيف الحب امائلته ، لانه ليس مطمئناً على دوام علاقته معها ؛ ومختل الثقة في صداقة احبابه ، لانه يعلم منهم انهم مثله لا يمكن التكافؤ ؛ وقد يضطرون لاضرار صديقهم بل وقتله وهم باكون . اسير الاستبداد لا يملك شيئاً ليحرص على حفظه ، لانه لا يملك مالا غير معرض للسلب ولا شرفا غير معرض للاهانة . ولا يملك الجاهل منه آمالا مستقبلية ليتبعضا ويشقى كما يشقى العاقل في سبيلها .

وهذه الحال تجعل الاسير لا ينوق في الكون لذة نعيم غير بعض المذات البهيمية . بناء عليه يكون شديد الحرص على حياته الحيوانية وان كانت

تعيسة . وكيف لا يحرص عليها وهو لا يعرف غيرها . اين هو من الحياة
الادبية ، اين هو من الحياة الاجتماعية ؟ اما الاحرار فتكون منزلة حياتهم
الحيوانية عندهم بعد مراتب عديدة ، ولا يعرف ذلك الامن كان منهم او كشف
الله عن بصيرته .

ومثال الاسراء في حرصهم على حياتهم الشيوخ فانهم عندما تسي حياتهم
كلها اسقاما وآلاما ويقربون من ابواب القبور ، يحرصون على حياتهم اكثر
من الشباب في مستقبل العمر ، في مستقبل المآذ ، في مستقبل الآمال .

الاستبداد يسلب الراحة الفكرية فيضني الاجسام فوق ضناها بالشقاء ،
فتمرض العقول ويختل الشعور على درجات متفاوتة في الناس . والعوام الذين
هم قليلو المادة في الاصل قد يصل مرضهم العقلي الى درجة قريبة من عدم
التمييز بين الخير والشر ، في كل ما ليس من ضروريات حياتهم الحيوانية .
ويصل تسفل ادراكهم الى ان مجرد آثار الابهة والعظمة التي يرونها على
المستبد واعوانه تبهر ابصارهم ؛ ومجرد سماع الفاظ التفخيم في وصفه
وحكايات قوته وصولته يزيغ افكارهم ، فيرون ويفكرون ان الدواء في الداء ،
فينصاعون بين يدي الاستبداد انصياع الغنم بين ايدي الذئاب حيث هي تجري
على قدميها جاهده الى مقر حتفها .

ولهذا كان الاستبداد يستولي على تلك العقول الضعيفة للعامة فضلا عن
الاجسام فيفسدها كما يريد ، ويتقلب على تلك الاذهان الضئيلة فيشوش فيها
الحقائق بل البديهيات كما يهوي ، فيكون مثلهم في انقيادهم الاعمى الاستبداد

ومقاومتهم المرشد والارشاد ، مثل تلك الهوام التي تترامى على النار، وكم هي
تغالب من يريد حجزها عن الهلاك . ولا غرابة في تأثير ضعف الاجسام
الضعف في العقول ، فان في المرضى وخفة عقولهم ، وذوي العاهات ونقص
ادراكهم ، شاهدأً بيناً كافياً يقاس عليه نقص عقول الاسراء البؤساء بالنسبة
الى الاحرار السعداء ؛ كما يظهر الحال ايضاً باقل فرق بين الفئتين من الفرق
الابين في قوة الاجسام وغزارة الدم واستحكام الصحة وجمال الهيئات .

ربما يستريب المطالع اللبيب الذي لم يتعب فكره في درس طبيعة الاستبداد،
من ان الاستبداد المشؤوم كيف يقوم على قلب الحقائق ، مع انه اذا دقق النظر
يتجلى له ان الاستبداد يقلب الحقائق في الازهان . يرى انه كم يمكن بعض
القياصرة والموك الاولين من التلاعب بالاديان تأييداً لاستبدادهم فاتبعهم
الناس . ويرى ان الناس وضعوا الحكومات لاجل خدمتهم، والاستبداد قلب
الموضوع ، فجعل الرعية خادمة للرعاة فقبلوا وقنعوا . ويرى ان الاستبداد
استخدم قوة الشعب ، وهي هي قوة الحكومة ، على مصالحهم للمصالحهم
فيرتضوا ويرضخوا . ويرى انه قد قبل الناس من الاستبداد ما ساقهم اليه من
اعتقاد ان طالب الحق فاجر ، وتارك حقه مطيع ، والمشتكي المتظلم مفسد ،
والنبيه المدقق ملحد ، والنامل المسكين صالح امين . وقد اتبع الناس
الاستبداد في تسميته النصح فضولاً ، والغيرة عداوة ، والشهامة عتواء ، والحمية
حماقة ، والرحمة مرضاً ؛ كما جاروه على اعتبار ان النفاق سياسة ، والتجسس
كياسة ، والدناءة لطف ، والنذالة دماءة .

ولا غرابة في تحكم الاستبداد على الحقائق في افكار البسطاء ، انما
الغريب اغفاله كثيراً من العقلاء ، ومنهم جمهور المؤرخين الذين يسمون
القاتحين الغالبيين بالرجال العظام ، وينظرون اليهم نظر الاجلال والاحترام
لمجرد انهم كانوا اكثروا في قتل الانسان ، واسرفوا في تخريب العمران .
ومن هذا القبيل في الغرابة اعلاء المؤرخين قدر من جاروا المستبدين ، وحازوا
القبول والوجاهة عند الظالمين . وكذلك افتخار الاخلاف باسلافهم المجرمين
الذين كانوا من هؤلاء الاعوان الاشرار .

وقد يظن بعض الناس ان للاستبداد حسنات مفقودة في الادارة الحرة
فيقولون مثلاً : الاستبداد يلين الطباع ويلطفها ، والحق ان ذلك يحصل فيه
عن فقد الشهامة لا عن فقد الشراسة . ويقولون الاستبداد يعلم الصغير الجاهل
حسن الطاعة والاتياد للكبير الخبير ؛ والحق ان هذا فيه عن خوف وجبانه
لا عن اختيار واذعان . ويقولون هو يربي النفوس على الاعتدال والوقوف
عند الحدود ، والحق ان ليس هناك غير انكماش وتقهقر . ويقولون الاستبداد
يقلل الفسق والفجور ، والحق انه عن فقر وعجز لاعن عفة او دين .
ويقولون هو يقلل التعديت والجرائم ، والحق انه يمنع ظهورها ويخفيها فيقل
تعديدها لاعددها .



الاخلاق اثمار بندها الوراثية ، وتربتها التربية ، وسقيها العلم ، والقائمون

عليها هم رجال الحكومة ؛ بناء عليه تفعل السياسة في اخلاق البشر مانفعله
العناية في انماء الشجر .

نعم الاقوام كالأجام ، ان تركت مهملت تراحت اشجارها وافلاذها ، وسقم
اكثرها ، وتغلب قوتها على ضعيفها فاهلكه ، وهذا مثل القبائل المتوحشة .
وان صادفت بستانيا يهيمه بقاؤها وزهوها فدبرها حسبما تطلبه طباعها ، قويت
واينعت وحسنت ثمارها ، وهذا مثل الحكومة العادلة . واذا بليت بستانيا
جدير بأن يسمى حطابا لايعنيه الا عاجل الاكتساب ، افسدها وخربها ،
وهذا مثل الحكومة المستبدة . ومتى كان الحطاب غريباً لم يخلق من تراب
تلك الديار وليس له فيها فخار ولا يلحقه منها عار ، انما هممها الحصول على الفائدة
العاجلة ولو باقتلاع الاصول ، فهناك الطامة وهناك البوار . فبناء على هذا المثال
يكون فعل الاستبداد في اخلاق الامم فعل ذلك الحطاب الذي لايرجى منه
غير الافساد .

لا تكون الاخلاق اخلاقا ما لم تكن ملكة مطردة على قانون فطري تقتضيه
اولا وظيفة الانسان نحو نفسه ، وثانيا وظيفته نحو عائلته ، وثالثاً وظيفته
نحو قومه ، ورابعاً وظيفته نحو الانسانية ، وهذا القانون هو ما يسمى عند
الناس بالناموس .

ومن اين لاسير الاستبداد ان يكون صاحب ناهور وهو كالحيوان
المملوك العنان ، يقاد حيث يراد ، ويعيش كالريش يهب حيث يهب الريح ، لانظام
ولا ارادة ؛ وماهي الارادة ؟ هي ام الاخلاق ، هي ما قيل فيها تعظيماً لشأنها :

لو جازت عبادة غير الله لاختر العقاء عبادة الارادة ؛ هي تلك الصفة التي تفصل الحيوان عن النبات في تعريفه بانه متحرك بالارادة . فالاسير اذن دون الحيوان لانه يتحرك بارادة غيره لا بارادة نفسه . ولهذا قال الفقهاء : لانية للرقيق في كثير من احواله ، انما هو تابع لنية مولاه . وقد يعذر الاسير على فساد اخلاقه ، لان فاقد الخيار غير مؤاخذ عقلا وشرعا .

اسير الاستبداد لانظام في حياته ، فلا نظام في اخلاقه ؛ قد يصبح غنيا فيضحى شجاعا كريما ، وقد يمسي فقيرا فبييت جبانا خسيسا ؛ وهكذا كل شؤونه تشبه الفوضى لارتيب فيها ، فهو يتبعها بلا وجهة . اليس الاسير قد ينبغي فيزجر او لايزجر ، وينبغي عليه فينصر او لاينصر ، ويحسن فيكافأ او او يرهق ، ويسيء كثيرا فيعنى وقليل فيشنتق ؛ ويجمع يوما فيضوى ، ويخصب يوما فيتختم ، يريد اشياء فيمنع ، ويأبى شيئا فيرغم ، وهكذا يعيش كما تقتضيه الصدف ان يعيش ؛ ومن كانت هذه حاله كيف يكون له خلاق وان وجد ابتداء يتعذر استمراره عليه . ولهذا لا تجوز الحكمة الحكم على الاسراء بخير او شر .

اقل ما يؤثره الاستبداد في اخلاق الناس ، انه يرغم حتى الاخيار منهم على الفة الرياء والتفاق ولبس السيئتان ؛ وانه يعين الاشرار على اجراء غي نفوسهم آمنين من كل تبعة ولو ادبية ، فلا اعتراض ولا انتقاد ولا افتضاح ، لان اكثر اعمال الاشرار تبقى مستورة ، يلقي عليها الاستبداد رداء خوف الناس من تبعة الشهادة على ذى شر وعقبى ذكر الفاجر بما فيه . ولهذا

شاعت بين الاسراء قواعد كثيرة باطلة كقولهم : اذا كان الكلام من فضة
فالسكوت من ذهب ، وقولهم البلاء مو كول بالمنطق . وقد تغالى وعاظهم في
سد افواههم ، حتى جملوا لهم امثال هذه الاقوال من الحكم النبوية وكم هجوا
لهم المهجو والغية بلا قيد ، فهم يقرؤون : « لا يحب الله الجهر بالسوء من
القول ، ويفعلون بقية الآية وهي : « الا من ظلم » .

اقوى ضابط للاخلاق النهي عن المنكر بالنصيحة والتوبيخ ، اي بحرس
الافراد على حراسة نظام الاجتماع ، وهذه الوظيفة غير مقدور عليها في
عهد الاستبداد لغير ذوي المنعة من الغيورين وقليل مام ، وقليل ما يفعلون ،
وقليل ما يفيد نهيهم ، لانه لا يمكنهم توجيه لغير المستضعفين الذين لا يملكون
ضررا ولا نفعا ، بل ولا يملكون من انفسهم شيئا ؛ ولانه ينحصر موضوع
نهيهم فيما لا تخفى قبا حته على احد من الرذائل النفسية الشخصية فقط ؛ ومع
ذلك فالجسور منهم لا يرى بدا من الاستثناء المخل للقواعد العامة كقوله :
السرقة قبيحة الا اذا كان استردادا منها والكذب حرام الا للمظلوم . والموظفون
في عهد الاستبداد للوعظ والارشاد يكونون مطلقا ، ولا اقول غالباً ، من
المنافقين الذين نالوا الوظيفة بالتملق ، وما ابعد هؤلاء عن التأثير لان النصح
الذي لا اخلاص فيه هو بذر عقيم لا ينبت ، وان نبت كان رياء كاصله ، ثم ان
النصح لا يفيد شيئا اذا لم يصادف اذنا تتطلب سماعه ، لان النصيحة وان كانت
عن اخلاص فهي لاتجاوز حكم البذر الحبي ، ان التي في ارض صالحة نبت ،
وان التي في ارض قاحلة مات .

اما النهي عن المنكرات في الادارة الحرة، فيمكن لكل غيور على نظام
قومه ان يقوم به بامان واخلاص، وان يوجه سهام قوارصه الى الضمفاء
والاقوياء سواء، فلا يخصصها الفقير المجروح الفؤاد، بل تستهدف ايضا ذوي
الشوكة والعناد. وان يخوض في كل واد حتى في مواضع تخفيف الظلم
ومؤاخذة الحكام، وهذا هو النصح الانكاري الذي يعدي ويمجدي، والذي
اطلق عليه النبي عليه السلام اسم (الدين) تعظيما لشأنه فقال : «الدين
النصيحة» .

ولما كان ضبط اخلاق الطبقات العليا من الناس من اهم الامور، اطلقت
الامم الحرة حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات مستثنية القذف فقط،
ورأت ان تحمل مضرة الفوضى في ذلك خير من التحديد، لانه لامانع للحكام
ان يجعلوا الشعرة من التقييد سلسلة من حديد، يخنقون بها عدوتهم الطبيعية
اي الحرية . وقد حمى القرآن قاعدة الاطلاق بقوله الكريم : «ولا يضر
كاتب ولا شهيد» .



الخصال تنقسم الى ثلاثة انواع :

الاول : الخصال الحسنة الطبيعية ، كالصدق والامانة والهمة والمدافعة
والرحمة ، والقبیحة الطبيعية كالرياء والاعتداء والجبانة والقسوة ، وهذا
القسم تضافرت عليه كل الطبايع والشرائع .

والنوع الثاني : الخصال الكمالية التي جاءت بها الشرائع الالهامية كتجسين
الايثار والعفو وتقبيح الزنا والطمع ؛ وهذا القسم يوجد فيه مالا تدرك كل
العقول حكمته او حكمة تعميمه ، فيمثله المنتسبون للدين احتراماً او خوفاً .
والنوع الثالث : الخصال الاعتيادية ، وهي ما يكتسبه الانسان بالوراثة
او بالتربية او بالالفة ، فيستحسن او يستقبح على حسب امياله مالم يضطر الى
التحول عنها .

ثم ان التدقيق يفيد ان الاقسام الثلاثة تشترك وتشارك ويؤثر بعضها في
بعض ، فيصير مجموعها تحت تأثير الالفة المديدة ، بحيث كل خصلة منها ترسخ او
تترنزل ، حسبما يصادفها من استمرار الالفة او انقطاعها ؛ فالقاتل مثلاً لا
يستنكر شنيعته في المرة الثانية كما استقبحها من نفسه في الاولى ، وهكذا
يخف الجرم في وهمه ، حتى يصل الى درجة التلذذ بالقتل كأنه حق طبيعي
له ، كما هي حالة الجبارين وغالب السياسيين ، الذين لا ترجح في افئدتهم عاطفة
رحمة عند قتلهم افراداً او ائمة لغاياتهم السياسية ، اهراقاً بالسيف او ازهاقاً
بالقلم ، ولا فرق بين القتل بقطع الاوداج وبين الامانة بايراث الشقاء غير
التسريع والابطاء .

اسير الاستبداد العريق فيه يرث شر الخصال ، ويتربي على اشرها ، ولا
بد ان يصحبه بعضها مدى العمر . بناء عليه ، ما بعد عن خصال الكمال ،
ويكفيه مفسدة لكل الخصال الحسنة الطبيعية والشرعية والاعتيادية تلبسه
بالزياء اضطراراً ، حتى يألفه ويصير ملكة فيه ، فيفقد بسببه ثقة نفسه بنفسه

لانه لايجد خلقاً مستقراً فيه ، فلا يمكنه مثلاً ان يجزم بامانته ، او يضمن ثباته على امر من الامور فيعيش سيء الظن في حق ذاته متردداً في اعماله ، لو امان نفسه على اهماله شؤونه ، شاعراً بفتور همته وتقص مروءته ويبقى طول عمره جاهلاً مورد هذا الخلل ، فيتهم الخالق والخالق جمل شأنه لم يتقصه شيئاً . ويتم تارة دينه وتارة تربيته وتارة زمانه وتارة قومه ؛ والحقيقة بعيدة عن كل ذلك وما الحقيقة غير انه خلق حراً فأمر .

اجمع الاخلاقيون على ان المتابس بشائبة من اصول القبائح الخلقية لا يمكنه ان يقطع بسلامة غيره منها ؛ وهذا معنى : « اذا ساءت فمال المرء ساءت ظنونه » . فالمرائي مثلاً ليس من شأنه ان يظن البراءة في غيره من شائبة الرياء الا اذا بعد تشابه النشأة بينهما بعداً كبيراً ؛ كأن يكون بينهما مغايرة في الجنس او الدين او تفاوت مهم في المنزلة كصعلوك وامير كبير . ومثال ذلك الشرقي الخائن ، يأمن الافرنجي في معاملته ويثق بوزنه وحسابه ولا يأمن ويثق بابن جلدته . وكذلك الافرنجي الخائن قد يأمن الشرقي ولا يأمن مطلقاً ابن جنسه . وهذا الحكم صادق على عكس القضية ايضاً اي ان الامين يظن الناس اماناً خصوصاً اشباهه في النشأة ، وهذا معنى (الكريم يُخدع) ، وكم يذهل الامين في نفسه عن اتباع حكمة الحزم في اساءة الظن في مواقفه اللازمة .

اذا علمنا ان من طبيعة الاستبداد الفة الناس بعض الاخلاق الرديئة ، وان منها ما يضعف الثقة بالنفس ، علمنا سبب قلة اهل العمل واهل العزائم في

الاسراء، وعلما ايضا حكمة فقد الاسراء ثقتهم بعضهم بعض . فينتج من ذلك ان
الاسراء محرومون طبعاً من ثمرة الاشتراك في اعمال الحياة، يعيشون مساكين
بأسين متواكلين متخاذلين متقاعسين متفاسلين ، والعاقل الحكيم لا يلومهم بل
يشفق عليهم ويلتمس لهم مخرجا ، ويتبع اثر احكم الحكماء القائل : « رب ارحم
قومي فانهم لا يعلمون » ، « اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون » .

وهنا استوقف المطالع واستلفته الى التأمل في ماهي ثمرة الاشتراك التي
يحرمها الاسراء ؛ فأذكره بان الاشتراك هو اعظم سر في الكائنات ، به قيام
كل شيء ماعدا الله وحده ، به قيام الاجرام السماوية ، به قيام كل حياة ، به
قيام المواليذ ، به قيام الاجناس والانواع ، به قيام الامم والقبائل ، به قيام
العائلات ، به تعاون الاعضاء . نعم ، الاشتراك فيه سر تضاعف القوة بنسبة
ناموس التربيع ؛ فيه سر الاستمرار على الاعمال التي لا تفي بها اعمار الافراد .
نعم ، الاشتراك هو السر كل السر في نجاح الامم المتمدنة ، به اكلوا ناموس
حياتهم القومية ، به ضبطوا نظام حكوماتهم ، به قاموا بمظائم الامور ، به
نالوا كلما يغبظهم عليه اسراء الاستبداد الذين منهم العارفون بقدر الاشتراك
ويتشوقون اليه ، ولكن كل منهم يبطن لغبن شر كائه باتكاله عليهم عملا ،
واستبداده عليهم رأيا ، حتى صار من امثالهم قولهم : « مامن متفقين الا و احدهما
مغلوب للآخر » .

ورب قائل يقول ان سر الاشتراك ليس بالامر الخفي ؛ وقد طالما كتب
فيه الكتاب حتى ملته الاسماع ؛ ومع ذلك لم يندفع للقيام به في الشرق غير

اليابانيين والبوير فما السبب ؟ فاجيبه بان الكتاب كتبوا واكثروا واحسنوا فيما فصلوا وصوروا، ولكن قاتل الله الاستبداد وشؤمه، جعل الكتاب يحصرون اقوالهم في الدعوة الى الاشتراك وما بمعناه من التعاون والاتحاد والتحاب والاتفاق، ومنعهم من التعرض لذكر اسباب التفرق والانحلال كلياً، أو اضطرهم الى الاقتصار على بيان الاسباب الاخيرة فقط. فمن قائل مثلاً: الشرق مريض وسببه الجهل، ومن قائل: الجهل بلاء وسببه قلة المدارس، ومن قائل: قلة المدارس عار وسببه عدم التعاون على انشائها من قبل الافراد او من قبل ذوي الشأن.

وهذا اعمق ما يحفظه قلم الكاتب الشرقي كانه وصل الى السبب المانع الطبيعي او الاختياري. والحقيقة ان هناك سلسلة اسباب اخرى حلقتها الاولى الاستبداد.

وكاتب آخر يقول: الشرق مريض وسببه فقد التمسك بالدين ثم يقف مع انه لو تتبع الاسباب، لبلغ الى الحكم بان التهاون في الدين اولاً وآخر اناشي من الاستبداد. وآخر يقول: ان السبب فساد الاخلاق؛ وغيره يرى انه فقد التربية، وسواء ظن انه الكسل؛ والحقيقة ان المرجع الاول في الكل هو الاستبداد، الذي يمنع حتى اولئك الباحثين عن التصريح باسمه المهيّب.



قد اتفق الحكماء الذين اكرمهم الله تعالى بوظيفة الاخذ بيد الامم في

بمخهم عن المهلكات والمنجيات ، على ان فساد الاخلاق يخرج الامم عن ان تكون قابلة للخطاب ، وان معاناة اصلاح الاخلاق من اصعب الامور واحوجها الى الحكمة البالغة والعزم القوي ؛ وذكروا ان فساد الاخلاق يعم المستبد واعوانه وعماله ، ثم يدخل بالمدوى الى كل البيوت ، لاسيا بيوت الطبقات العليا التي تمثل بها السفلى . وهكذا يفشو الفساد وتعمي الامة يبكيها المحب ويشمت بها العدو، وتبيت وداؤها عياء يتعاضى على الدواء . وقد سلك الانبياء عليهم السلام، في اتقاذ الامم من فساد الاخلاق، مسلك الابتداء اولا بفك العقول من تعظيم غير الله والاذعان لسواه . وذلك بتقوية حسن الايمان المفطور عليه وجدان كل انسان . ثم جهدوا في تنوير العقول بمبادئ الحكمة ، وتعريف الانسان كيف يملك ارادته، اي حريته في افكاره ، واختياره في اعماله ، وبذلك هدموا حصون الاستبداد وسدوا منبع الفساد .

ثم بعد اطلاق زمام العقول ، صاروا ينظرون الى الانسان بانه مكلف بقانون الانسانية ومطالب بحسن الاخلاق، فيعلمونه ذلك بأساليب التعليم المقتنع وبث التربية التهذيبية .

والحكماء السياسيون الاقدمون، اتبعوا الانبياء عليهم السلام في سلوك هذا الطريق وهذا الترتيب ؛ اي بالابتداء من نقطة دينية فطرية تؤدي الى تحرير الضائر ، ثم باتباع طريق التربية والتهذيب بدون فتور ولا انقطاع . اما المتأخرون من قادة العقول في الغرب ، فمنهم فئة سلكوا طريقة

الخروج بأهمهم من حظيرة الدين وآدابه النفسية ، الى فضاء الاطلاق وتربية الطبيعة ، زاعمين ان الفطرة في الانسان اهدي به سبيلا ، وحاجته الى النظام تغنيه عن اعانة الاديان ، التي هي كالمخدرات سموم تعطل الحس بالهموم ، ثم تذهب بالحياة فيكون ضررها اكبر من نفعها .

وقد ساعدتم على سلوك هذا المسلك ، انهم وجدوا اهمهم قدفشا فيها نور العلم ؛ ذلك العلم الذي كان منحصرا في خدمة الدين عند المصريين والآشوريين ، ومحتكرا في ابناء الاشراف عند الفرناطيين والرومان ، ومخصصاً في اعداد من الشبان المنتخبين عند الهنديين واليونان ؛ حتى جاء العرب بعد الاسلام واطلقوا حرية العلم ، وباحوا تناوله لكل متعلم ؛ فانتقل الى اوربا حراً على رغم رجال الدين ، فتنورت به عقول الامم على درجات ، وفي نسبتها ترقى الامم في النعيم ، وانتشرت وتخالطت ، وصار المتأخر منها يغبط المتقدم ويتنقص من حالته ، ويتطالب المحقق ويبحث عن وسائله . فنشأ من ذلك حركة قوية في الافكار ، حركة معرفة الخير والغيرة على نواله ؛ حركة معرفه الشر والانفة من الصبر عليه ، حركة السير الى الامام رغم كل معارض . اغتنم زعماء الحرية في الغرب قوة هذه الحركة وازادوا اليها قوات ادبية شتى ، كاستبدالهم ثقالة وقار الدين بزهوة عروس الحرية ، حتى انهم لم يبالوا بتحميل الحرية بحسنااء خليعة تختلب النفوس . وكاستبدالهم رابطة الاشتراك في الطاعة للمستبدين برابطة الاشتراك في الشؤون العمومية ، ذلك الاشتراك الذي يتولد منه حب الوطن . وهكذا جعلوا قوة حركة الافكار تياراً

سلطوه على رؤوس الرؤوس من اهل السياسة والدين. ثم ان هؤلاء الزعماء استباحوا القساوة ايضا، فاخذوا من مهجورات دينهم قاعدة (الغاية تبرر الوسطة) ، كجواز السرقة اذا كانت الغاية منها صرف المال في سبيل الخير ، وقاعدة (ثقيل الذمة يبيح الفعل القبيح) كشهادة الزور على ذمة الكاهن التي يتحمل عنه خطيئتها ، ودفعوا الناس بها الى ارتكاب الجرائم الفظيعة التي تقشعر منها الانسانية ، التي لا يستبيحها الحكيم الشرقي لما بين ابناء الغرب و ابناء الشرق من التباين في العرائز والاخلاق .

الغربي : مادي الحياة ، قوي النفس ، شديد المعاملة ، حريص على الاستئثار ، حريص على الانتقام ، كانه لم يبق عنده شيء من المبادئ العالية والعواطف الشريفة التي نقلتها له مسيحية الشرق . فالجرماني مثلا : جاف الطبع ، يرى ان العضو الضعيف من البشر يستحق الموت ، ويرى كل فضيلة في القوة ، وكل القوة في المال ؛ فهو يحب العلم ، ولكن لاجل المال ، ويحب المجد ولكن لاجل المال . وهذا اللاتيني مطبوع على العجب والطمش ، يرى العقل في الاطلاق والحياة في خلع الحياء ، والشرف في الترف ، والكياسة في الكسب ، والعز في الغلبة ، واللذة في المائدة والفراش .

اما اهل الشرق فهم ادبيون ، ويغلب عليهم ضعف القلب وسلطان الحب ، والاصفاء الوجدان والميل للرحمة ولو في غير موقعها ، والطف ولومع الخصم ، وIRON العز في الفتوة والمروءة ، والغنى في القناعة والفضيلة ، والراحه في الانس والسكينة ، واللذة في الكرم والتعجب ، وهم يفضنون ولكن للدين فقط ، ويفارون ولكن

على العرض فقط .

ليس من شأن الشرقي ان يسير مع الغربي في طريق واحدة ؛ فلا تطاوعه طباعه على استباحة ما يستحسنه الغربي ، وان تكلف تقليده في امر فلا يحسن التقليد ، وان احسنه فلا يثبت ، وان ثبت فلا يعرف استثماره ، حتى لو سقطت الثمرة في كفه تمنى لو قفزت الى فمه ! . . . فالشرقي مثلاً يهتم في شأن ظالمه الى ان يزول عنه ظلمه ، ثم لا يفكر فيمن يخلفه ولا يراقبه ، فيقع في الظلم ثانية ، فيعيد الكرة ويعود الظلم الى مالا نهاية . وكأولئك الباطنة في الاسلام : فتكوا بمئات امراء على غير طائل ، كانوا لم يسمعوا بالحكمة النبوية : « لا يلدغ المرء من جحر مرتين » ، ولا بالحكمة القرآنية : « ان الله يحب المتقين » . اما الغربي اذا اخذ على يد ظالمه فلا يفلته حتى يشلها ، بل حتى يقطعها ويكوي مقطعها .

وهكذا بين الشرقيين والغربيين فروق كثيرة ، قد يفضل في الافراديات الشرقي على الغربي ، وفي الاجتماعيات يفضل الغربي على الشرقي مطلقاً . مثال ذلك : الغربيون يستحلفون اميرهم على الصداقة في خدمته لهم والتزام القانون . والسلطان الشرقي يستحلف الرعية على الاقياد والطاعة . الغربيون يمنون على ملوكهم بما يرتزقون من فضلاتهم ، والامراء الشرقيون يتكرمون على من شاؤا باجراء اموالهم عليهم صدقات . الغربي يعتبر نفسه مالكا لجزء مشاع من وطنه ، والشرقي يعتبر نفسه واولاده وما في يديه ملكا لاميره . الغربي له على اميره حقوق وليس عليه حقوق ، والشرقي عليه لاميره حقوق

وليس له حقوق. الغربيون يضعون قانونا لا يرمم يسري عليه ، والشرقيون يسرون على قانون مشيئة امرائهم . الغربيون قضاؤهم وقدرهم من الله ، والشرقيون قضاؤهم وقدرهم ما يصدر من بين شفهي المستعبدين . الشرقي سريع التصديق ، والغربي لا يثبت حتى يرى ويلمس . الشرقي اكثر ما يغار على الفروج كان شرفه كله مستودع فيها ، والغربي اكثر ما يغار على حريته واستقلاله . الشرقي حريص على الدين والرياء فيه ، والغربي حريص على القوة والعز والمزيد فيهما . والخلاصة ان الشرقي ابن الماضي والخيال ، والغربي ابن المستقبل والجد .

الحكام المتأخرون الغربيون ساعدتهم ظروف الزمان والمكان ، وخصوصية الاحوال ، لاختصار الطريق فسلكوه ؛ واستباحوا ما استباحوا ، حتى انهم استباحوا في التمهيد السياسي تشجيع اعوان المستبد على تشديد وطأة الظلم والاعتساف بقصد تعميم الحق عليه ؛ وبمثل هذه التدابير القاسية نالوا المراد او بعضه من تحرير الافكار وتهذيب الاخلاق وجعل الانسان انساناً .



وقد سبق هؤلاء القلاة فئة آتت اثر النبيين ، ولم تحفل بطول الطريق وتعبه ، فنجحت ورسخت ؛ واعني بتلك الفئة اؤلئك الحكام الذين لم يأتوا بدين جديد ، ولا تمسكوا بمعادة كل دين كؤسسي جمهورية الفرنسيين ؛ بل رتقوا فتوق الدهر في دينهم بما نقحوا وهذبوا وسهلوا وقربوا ، حتى

جددوه ، وجعلوه صالحاً لتجديد خلق اخلاق الامة .

وما احوج الشرقيين اجمعين من بوذيين ومسلمين ومسيحيين واسرائيليين وغيرهم ، الى حكام لا يبالون بفوغاء العلماء المرائين الاغبياء ، والرؤساء القساة الجهلاء . فيجددون النظر في الدين ، نظر من لا يحفل بغير الحق الصريح ، نظر من لا يضيع النتائج بتشويش المقدمات ، نظر من يقصد اظهار الحقيقة لاظهار الفصاحة ، نظر من يريد وجه ربه لاستمالة الناس اليه ؛ وبذلك يسيّدون النواقص الممثلة في الدين ، ويهذبونه من الزوائد الباطلة مما يطرأ عادة على كل دين يتقدم عهده ، فيحتاج الى مجددين يرجعون به الى اصله المبين البريء من حيث تملك الارادة ورفع البلادة من كل مايشين ، المخفف شقاء الاستبداد والاستعباد ، المبصر بطرائق التعليم والتعلم الصحيحين ؛ المهيب قيام التربية الحسنة واستقرار الاخلاق المنتظمة مما به يصير الانسان انساناً ، وبه لا بالكفر يعيش الناس اخواناً .

والشرقيون ماداموا على حاضر حالهم بعيدين عن الجذ والعزم ، مرناحين للهو والهزل تسكيناً لآلام اسارة النفس واخلاقاً الى الخمول والتسفل ، طلباً لراحة الفكر المضبوط عليه من كل جانب ، يتألمون من تذكيرهم بالحقائق ، ومطالبتهم بالوظائف ، ينتظرون زوال العناد بالتواكل ، او مجرد التمني والدعاء ، او يتربصون صدفة مثل التي نالتها بعض الامم ، فليتوقعوا اذن ان يفقدوا الدين كلياً فيمسوا ، وما مسأؤهم ببعيد ، دهرين لا يدرون اي الحياتين اشقى ، فلينظروا ما حاق بالآشوريين والفينيقيين وغيرهم من الامم المنقرضة المندمجة

في غيرها خدما و ختولا .

والامر الغريب ، ان كل الامم المنحطة من جميع الاديان تحصر بلية انحطاطها السياسي في تهاونها بامور دينها ، ولا ترجو تحسين حالتها الاجتماعية الا بالتمسك بمروة الدين تمسكا مكيناً ، ويريدون بالدين العبادة ، ولنعم الاعتقاد لو كان يفيد شيئاً ، لكنه لا يفيد ابداً لانه قول لا يمكن ان يكون وراءه فعل ؛ وذلك ان الدين بذر جيد لاشبهه فيه ، فاذا صادف مغرساً طيباً نبت ونمى ، وان صادف ارضاً قاحلة مات وقات ، او ارضاً مغراقاً هاف ولم يثمر . وما هي ارض الدين ؟ ارض الدين هي تلك الامة التي اعمى الاستبداد بصرها وبصيرتها وافسد اخلاقها ودينها ، حتى صارت لا تعرف للدين معنى غير العبادة والنسك اللذين زيادتهما عن حددهما المشروع اضر على الامة من نقصهما كما هو مشاهد في المنتسكين .

نعم ، الدين يفيد الترقى الاجتماعي اذا صادف اخلاقاً فطرية لم تفسد ، فينهض بها كما نهضت الاسلامية بالعرب . تلك النهضة التي نطلبها منذ الف عام عبثاً .

وقد علمنا هذا الدهر الطويل مع الاسف ، ان اكثر الناس لا يحفلون بالدين الا اذا وافق اغراضهم ، او لهوا ورياء ؛ وعلمنا ان الناس عبيد منافعهم وعبيد الزمان ، وان العقل لا يفيد العزم عندهم ، انما العزم عندهم يتولد من الضرورة او يحصل بالسائق الحبير ، ولا يستحي الناس من ان يلزموا انفسهم باليمين او النذر . بناء عليه ، ما جدر بالامم المنحطة ان تلتبس دواءها من طريق

احياء العلم واحياء الهممة مع الاستعانة بالدين والاستفادة منه بمثل : « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ؟ لا ان يتكلموا على ان الصلاة تمنع الناس عنها بطبها .

الاستعداد والتربية

خلق الله في الانسان استعداداً للصالح واستعداداً للفساد ، فأبواه يصلحانه وأبواه يفسدانه . اى ان التربية تربو باستعداده جسماً ونفساً وعقلاً ان خيراً فخير وان شراً فشر . وقد سبق ان الاستعداد المشؤوم يؤثر على الاجسام فيورثها الاسقام ، ويسطو على النفوس فيفسد الاخلاق ، ويضغط على القول فيمنع نساءها بالعلم . بناء عليه تكون التربية والاستعداد عاملين متماكسين في النتائج ، فكل ماتبينه التربية مع ضعفها يهدمه الاستعداد بقوته ، وهل يتم بناء وراءه هادم .

الانسان لاحد لغايتيه رقياً وانحطاطاً . وهذا الانسان الذى حارت العقول فيه ، الذى تحمل امانة تربية النفس وقد ابتهت العوالم ، فاتم خالقه استعداده ثم اوكله لخيرته ، فهو ان يشأ الكمال يبلغ فيه الى مافوق مرتبة الملائكة ، ان كان هناك ملائكة غير خواطر الخير . وان شاء تلبس بالذائل حتى يكون احط من الشياطين ، ان كان هناك شياطين غير وساوس النفس بالشر . على ان الانسان اقرب للشر منه للخير . وكفى ان الله ماذكر الانسان في القرآن، الا وقرن اسمه بوصف قبيح كظلم وغرور وكفار

وجبار وجهول واثيم . ماذا ذكر الله تعالى الانسان في القرآن الا وهجاه فقال
« قتل الانسان ما كفره » « ان الانسان لكفور » « ان الانسان لني خسر » -
« ان الانسان ليطغى » - « خلق الانسان عجولا » - « خلق الانسان من عجل » .
ما وجد من مخلوقات الله من نازع الله في عظمته ، والمستبدون من الانسان
ينازعون فيه ، والمتناهون في الرذالة قد يقبحون عبثاً لغير حاجة في النفس
حتى وقد يتعمدون الاساءة لانفسهم .

الانسان في نشأته كالغصن الرطب فهو مستقيم لدن بطبعه ، ولكنها
اهواء التربية تميل به الى يمين الخير او شمال الشر ، فاذا شب يبس وبقي
على امياله مادام حيا . بل تبقى روحه الى ابد الآبدين في نعيم السرور بايقائه
حق وظيفه الحياة او في جحيم الندم على تفریطه . وربما كان لاغرابة في
تشبيه الانسان بعد الموت بالمرء الفرح الفخور اذا نام ولذت له الاحلام ، او
بالمجرم الجاني اذا نام فغشيتة قوارص الوجدان بهوا جس كلها ملام وآلام .
التربية ملكة تحصل بالتعليم والتدوين وانقودة والاقبتاس ، فأم اصولها
وجود المربين واهم فروعها وجود الدين . جعلت الدين فرعا لاصلا ، لان
الدين علم لا يفيد العمل اذا لم يكن مقرونا بالتدوين . وهذا هو سبب
اختلاف الاخلاق من علماء الدين عند الاسلام عن امثالهم من البراهمة
والنصارى ، وهو سبب اقبال المسلمين في القرن الخامس فمابعد ، على قبول
اصول الطوائف التي كانت لها محضات تعاليمها وتبرينات اي تربية
المريدين ، ثم خالطها القشر ، ثم صارت قشرا محضا ، ثم صار اكثرها

لهواً او كفراً .

ملكة التربية بعد حصولها ان كانت شراً تضافرت مع النفس ووايها
الشیطان الخناس فرسخت ، وان كانت خيراً تبقى مقلقلة كاسفينة في بحر
الاهواء ، لا يرسوبها الا فرعها الديني في السر والعلانية ، او الوازع السياسي
عند يقين العقاب .

والاستبداد ریح صرصر فيه اعصار يجعل الانسان كل ساعة في شأن ،
وهو مفسد للدين في اهم قسميه اي الاخلاق ، واما العبادات منه فلا يمسه
لانها تلامحه في الاكثر . ولهذا تبقى الاديان في الامم المأسورة ، عبارة عن
عبادات مجردة صارت عادات فلا تفيد في تطهير النفوس شيئاً ، ولا تنهي عن
فحشاء ولا منكر لفقده الاخلاص فيها تبعاً لفقده في النفوس ، التي الفت ان
ان تتلجأ وتلوى بين يدي سطوة الاستبداد في زوايا الكذب والرياء والخداع
والنفاق ، ولهذا لا يستغرب في الاسير الا ليف تلك الحال ، اي الرياء ، ان
يستعمله ايضاً مع ربه ، ومع ابيه وامه ومع قومه وجنسه ، حتى ومع نفسه .

التربية تربية الجسم وحده الى سنتين ، وهي وظيفة الام او الحاضنة ،
ثم تضاف اليها تربية النفس الى السابعة ، وهي وظيفة الابوين والعائلة معاً ،
ثم تضاف اليها تربية العقل الى البلوغ ، وهي وظيفة المعلمين والمدارس ؛ ثم
تأتي تربية القدوة بالاقربين والخلطاء الى الزواج ، وهي وظيفة الصدفة ؛
ثم تأتي تربية المقارنة ، وهي وظيفة الزوجين الى الموت او الفراق .

ولا بد ان تصحب التربية من بعد البلوغ ، تربية الظروف المحيطة ،

وتربية الهيئة الاجتماعية ، وتربية القانون او السير السياسي ، وتربية
الانسان نفسه .



الحكومات المنتظمة هي تتولى ملاحظة تسهيل تربية الامة من حين تكون
في ظهور الآباء ، وذلك بان تسن قوانين النكاح ، ثم تعتي بوجود القابلات
والملقحين والاطباء ، ثم تفتح بيوت الايتام المقطاء ، ثم تعد المكتاتب
والمدارس للتعليم من الابتدائي الجبري الى اعلى المراتب ؛ ثم تسهل الاجتماعات
وتعهد المسارح ، وتحمي المنتديات ، وتجمع المكتبات والآثار ، وتقيم النصب
المذكرات ، وتضع القوانين المحافظة على الآداب والحقوق ، وتسهر على حفظ
المعادن القومية ، وانماء الاحساسات المالية ، وتقوي الامال ، وتيسر
الاعمال ، وتؤمن العاجزين فعلا عن الكسب من الموت جوعا ، وتدفع سليحي
الاجسام الى الكسب ولو في اقصى الارض ، وتحجبي الفضل وتقدر الفضيلة .
وهكذا تلاحظ كل شؤون المرء ولكن من بعيد ، كي لا تلخل بحريته واستقلاله
الشخصي ، الا تقرب منه الا اذا جنى جرما لتعاقبه ، او مات لتواريه .

وهكذا الامة تحمص على ان يعيش ابنها راضيا بنصيبه من حياته
لا يفكر قط كيف تكون بعده حالة صبية ضماف يتركهم وراه ، بل يموت
مطمئنا راضيا مرضيا آخر دعائه : فلتحني الامة فلتحني المهمة .

اما المعيشة الفوضى في الادارات المستبددة فهي غنية عن الترية ، لانها

محض نماء يشبه نماء الاشجار الطبيعية في الغابات والاحراش ، يسطو عليها الحرق والفرق. وتحطمها العواصف والايدي القواصف، ويتصرف في فساتلها وفروعها الفأس الاعمى ، فتعيش ماشاءت رحمة الخطاين ان تعيش ، والخيار للصدفة تعوج او تستقيم، تشر او تعقم .

يعيش الانسان في ظل العدالة والحرية نشيطاً على العمل بياض نهاره، وعلى الفكر سواد ليله ، ان طم تلذذ، وان تلهى تروح وتريض ، لانه هكذا رأى ابويه واقربائه ، وهكذا يرى قومه الذين يعيش بينهم . يراهم رجالا ونساء ، اغنياء وفقراء ، ملوكا وصعاليك ، كلهم دائبين على الاعمال يفتخر منهم كاسب الدينار بكده وجده ، على مالك المليار ارثا عن ابيه وجده . نعم يعيش العامل ناعم البال يسره النجاح ولا تقبضه الخيبة ، انا ينتقل من عمل الى غيره ومن فكر الى آخر، فيكون متلذذا بآماله ان لم يسارعه السعد في اعماله ، وكيفما كان يبلغ العذر عند نفسه والناس بمجرد ايفائه وظيفة الحياة اي العمل . ويكون فرحا فخورا نجح او لم ينجح، لانه يرى من عار العجز والبطالة .

اما اسير الاستبداد ، فيعيش خاملا خامدا ضائع القصد ، حاراً لا يدري كيف يميت ساعاته وأوقاته ويدير ايامه واعوامه ، كانه حريص على بلوغ أجله ليستتر تحت التراب . ويخطيء والله من يظن ان اكثر الاسراء لاسيا منهم الفقراء لا يشعرون بالآلام الاسر ، مستدلاً بأنهم لو كانوا يشعرون لبادروا الى ازالته ؛ والحقيقة في ذلك أنهم يشعرون باكثر الآلام ولكنهم

لا يدرك كون ما هو سببها ومن اين جاءتهم ، فيرى احدهم نفسه منقبضاً عن العمل ،
لانه غير امين على اختصاصه بالثمرة ، وربما ظن السلب حقاً طبعياً الاقوياء
فيتمنى ان لو كان منهم . ثم يعمل تارة ولكن بدون نشاط ولا اتقان فيفشل
ضرورة ، ولا يدري ايضاً ما السبب ، فيغضب على ما يسميه سعدا او خطا او
ظالماً او قدراً . والمسكين من اين له ان يعرف ان النشاط والاتقان
لا يتأتيان الا مع لذة انتظار النجاح في العمل ؛ تلك اللذة التي قدر الحكماء
انها اللذة الكبرى ، لاستمرار زمانها من حين العزم الى تمام العمل ،
والاسير لا اطمئنان فيه على الاستمرار ، ولا تشجيع له على الصبر والجدل .

الاسير المعذب المنتسب الى دين يسلي نفسه بالسعادة الاخرية ، فيعدها
بجنان ذات افنان ونعيم مقيم اعده له الرحمن ، ويبعد عن فكره ان الدنيا
عنوان الآخرة ، وانه ربما كان خاسر الصفتين ، بل ذلك هو الكائن غالباً .
ولبسطاء الاسلام مسليات اظنها خاصة بهم يعطفون مصائبهم عليها وهي نحو
قولهم : الدنيا سجن المؤمن ، المؤمن مصاب ، اذا احب الله عبداً ابتلاه ،
هذا شأن آخر الزمان ، حسب المرء لقيمت يقمن صلبه . ويتناسون حديث
« ان الله يكره العبد البطال » والحديث المفيد معنى « اذا قامت الساعة وفي
يد احدكم عرسة فليفرسها » ، ويتعافلون عن النص القاطع المؤجل قيام الساعة
الى ما بعد استكمال الارض زخرفتها وزينتها . واين ذلك بعد ؟

وكل هذه المسليات المثبطات تهون عند ذلك السم القاتل ، الذي يحول
الاذهان عن التماس معرفة سبب الشقاء ، ويرفع المسؤولية عن المستبدن

ويلقيها على عاتق القضاء والقدر، بل على عاتق الاسراء المساكين انفسهم .
واعنى بهذا السم سوء فهم العوام، وبله الخواص ، لما ورد في التوراة من
نحو : « اخضعوا للسلطان ولا سلطة الا من الله » و « الحاكم لا يتقلد السيف
جزافا ، انه مقام للانتقام من اهل الشر » ؛ ولما ورد في الرسائل من نحو :
« فلتخضع كل نسمة للسلطة المقامة من الله » ، وقد صاغ وعاظ المسلمين
ومحدوهم من ذلك قولهم : « السلطان ظل الله في الارض » . و « الظالم
سيف الله ينتقم به ثم ينتقم منه » . و « الملوك ملهون » . هذا وكل ماورد في
هذا المعنى ان صح فهو مقيد بالعدالة او محتمل للتأويل بما يعقل ، وبما ينطبق
على حكم الآية الكريمة التي فيها فصل الخطاب وهي « ألا لعنة الله على
الظالمين » . وآية « ولا عدوان الا على الظالمين » .



التربية علم وعمل . وايس من شأن الامم المملوكة شؤونها ، ان يوجد
فيها من يعلم التربية ولا من يعلمها . حتى ان الباحث لا يرى عند الاسراء علماً
في التربية مدفوناً في الكتب فضلاً عن الاذهان . اما العمل فكيف يتصور
وجوده بلا سبق عزم ، وهو بلا سبق يقين ، وهو بلا سبق علم . وقد ورد
في الأثر « النية سابقة العمل » . وورد في الحديث : « انما الاعمال بالنيات » .
بناء عليه ما بعد الناس المعصوبة ارادتهم ، المغالولة ايديهم ، عن توجيه الفكر الى
مقصد مقيد كالتربية ؛ او توجيه الجسم الى عمل نافع كتمرين الوجه على

الحياء والقلب على الشفقة .

نعم ما بعد الاسراء عن الاستعداد لقبول التربية ، وهي قصر النظر على المحاسن والعبر ، وقصر السمع على الفوائد والحكم ، وتبويد اللسان على قول الخير ، وتعويد اليد على الاتقان ، وتكبير النفس عن السفاسف ، وتكبير الوجدان عن نصرة الباطل ، ورعاية الترتيب في الشؤون ، ورعاية التوفير في الوقت والمال . والاندفاع بالكلية لحفظ الشرف ، لحفظ الحقوق ، ولحماية الدين ، لحماية الناموس ، ولحب الوطن ، ولحب العائلة . ولاعانة العلم ، لاعانة الضميف ، ولاحتقار الظالمين ، لاحتقار الحياة . الى غير ذلك مما لاينبت الا في ارض العدل ، تحت سماء الحرية ، في رياض التريتين العائلية والقومية .

الاستبداد يضطر الناس الى استباحة الكذب والتحيل والخداع والنفاق والتذلل . والى مراغمة الحس وامانة النفس ونبذ الجدد وترك العمل ، الى آخره . وينتج من ذلك ان الاستبداد المشؤوم ، هو يتولى بطبعه تربية الناس على هذه الخصال الملعونة . بناء عليه يرى الآباء ان تعبيرهم في تربية الابناء التربية الاولى على غير ذلك لا بد ان يذهب عبثاً تحت ارجل تربية الاستبداد ؛ كما ذهبت قبلها تربية آباؤهم لهم ، او تربية غيرهم لابنائهم سدى .

ثم ان عبيد السلطة التي لاحدود لها هم غير مالكين انفسهم ؛ ولا هم آمنون على انهم يربون اولادهم لهم . بل هم يربون انعاما للمستبدين ، واعوانا لهم عليهم . وفي الحقيقة ان الاولاد في عهد الاستبداد ، هم سلاسل من حديد

يرتبط بها الآباء على اوتاد الظلم والهوان والخوف والتضييق . فالتوالد من حيث هو زمن الاستبداد حق ، والاعتناء بالتربية حق مضاعف ، وقد قال شاعر شاعر :

ان دام هذا ولم تحدث له غير لم يُبكَ مِيت ولم يفرح بمولود
وغالب الاسراء لا يدفعهم للزواج قصد التوالد ، انما يدفعهم اليه الجهل
المظلم وانهم حتى الاغنياء منهم محرومون من كل الميزات الحقيقية : كلذة العلم
وتعليمه ، ولذة المجد والحماية ، ولذة الايثار والبذل ، ولذة احراز مقام في
القلوب ، ولذة نفوذ الرأي الصائب ، ولذة كبر النفس عن السفاسف ، الى
غير ذلك من الميزات الروحية .

اما ملذات هؤلاء التعساء فهي مقصورة على لذتين اثنتين ، الاولى منها
لذة الاكل وهي جعلهم بطونهم مقابر للحيوانات ان تيسرت ، والا فزابل
للنباتات ، او بجعلهم اجسامهم في الوجود كما قيل انابيب بين المطبخ و
(الكنيف) ، او جعلها معامل اعدت لتجهيز الاخبيين . واللذة الثانية هي
الرعة باستفراغ الشهوة ، كأن اجسامهم خلقت دمامل جرب على اديم
الارض ، يطيب لها الحك ووظيفتها توليد الصيد ودفنه . وهذا الشره البيهي
في البعال هو مايعمي الاسراء ويرميهم بالزواج والتوالد .

العرض زمن الاستبداد كسائر الحقوق غير مصون ، بل هو معرض
لهتك الفساق من المستبدين والاشرار من اعوانهم ، فانهم كما اخبر القرآن
عن الفراعنة ، يأسرون الاولاد ويستحيون النساء خصوصاً في الحواضر الصغيرة

والقرى المستضعف اهلها. ومن الامور المشاهدة ان الامم التي تقع تحت اسر
امة تغايرها في السياء ، لا يمضي عليها اجيل الا وتغشو فيها سياء الآسرين :
كسواد العيون في الاسبانيول ، وبياض البشرة في الافريقيين . وعدم
الاطمئنان على العرض ، يضعف الحب الذي لا يتم الا بالاخصاص ، ويضعف
لصقة الاولاد بازواج امهاتهم فتضعف الغيرة على تحمل مشاق التربية ، تلك
الغيرة التي لاجلها شرع الله النكاح وحرم السفاح .

للسعة والفقر ايضا دخل كبير في تسهيل التربية ، واين الاسراء من
السعة . كما ان لانتظام المعيشة ولو مع الفقر علاقة قوية في التربية ؛ ومعيشة
الاسراء اغنياء كانوا او معدمين ، كلها خلل في خلل وضيق في ضيق ، وذلك
يجعل الاسير هين النفس ، وهذا اول دركات الانحطاط ؛ ويرى ذاته
لا يستحق المزيد في النعيم مطعما ومشربا وملبسا ومسكنا ، وهذا ثاني الدركات ؛
ويرى استعدادة قاصرا عن الترتي في العلم ، وهذا ثالثها ؛ ويرى حياته على
يساطتها لا تقوى الا بمعاونة غيره له ، وهذا رابعها ، وهلم جرا ! .

بناء عليه ما بعد الاسراء عن النشاط للتربية ، ثم لماذا يتحملون مشاق
التربية وهم ان نوروا اولادهم بالعلم جنوا عليهم بتقوية احساسهم ، فيزيدونهم
شقاء ويزودونهم بلاء ، ولهذا لاغرو ان يخنار الاسراء الذين فيهم بقية من
من الادراك ، ترك اولادهم هملا تجرفهم البلاهة الى حيث شاء .

واذا افكرنا كيف ينشأ الاسير في البيت الفقير وكيف يتربى ،
نجد انه يلحق به وفي الغالب ابواه متناكدان متشاكسان ، ثم اذا تحرك جنينا

حرك شراسة امه دشتمته ، او زاد آلام حياتها فضرته ؛ فاذا ماتما ضيقت عليه بطنها لالقتها الانحاء خمولا والتصرصر صفارا ، والتقلص لضيق فراش الفقر ؛ ومتى ولدته ضغط عليه بالتماط اقتصاداً او جهلاً ، فاذا تألم وبكى سدت فمه بشديها ، او نفسه فحضا او بدوار السرير ، او سقطه مخدرا عجزا عن نفقة الطبيب ، فاذا ماظم ، يأتيه الغذاء الفاسديضيق معدته ويفسد مزاجه ؛ فان كان قوي البنية طويل العمر وترعرع ، يمنع من رياضة اللعب لضيق البيت ؛ فان سأل واستفهم ماذا وما هذا ليتعلم يزجر ويلكم لضيق خلق ابويه ، وان جالسهما ليألف المعاشرة ويستني عنه التوحش ، يبعده كي لايقف على اسرارها فيسترقها منه الجيران الخلطاء ، فتنموا الى اعوان الظالمين وما اكثرهم ؛ فاذا قويت رحلاه يدفعه الى خارج الباب ، الى مدرسة الالفة على القدارة ، وتعلم صيغ الشتائم والسباب ؛ فان عاش ونشأ وضع في مكتب او عند ذي صنعة ، فيكون اكبر القصد ربطه عن السراح والراح . فاذا بلغ الشباب ، ربطه اولياؤه على وتد الزواج كي لايفر من مشاكلهم في شقاء الحياة ، ليحني هو على نسله كما حني عليه ابواه ؛ ثم هو يتولى التضييق على نفسه باطواق الجمل وقبود الخوف ، ويتولى المستبدون التضييق على عقله واسانه وعمله وامله .

وهكذا يعيش الاسير من حين يكون نسمة في ضيق وضغط ؛ يهرول مابين عتبة هم ووادي غم ، يودع سقما ويستقبل سقما الى ان يفوز بنعمة الموت مضيقا دياه مع آخرته ، فيموت غير آسف ولا مأسوف عليه .

وما أظلم من يؤخذ الاسراء على عدم اعتنائهم بلوازم الحياة . فالنظافة
مثلا : لماذا يهتم بها الاسير ؟ هل لاجل صحته وهو في مرض مستمر ، ام
لاجل لذته وهو المتألم كيفما تقلب جسمه او نظره ؟ ام لاجل ذوق من
يجالس او يؤاكل ، وهو من عفت نفسه صحبة الحياة .

ولا يظن المطالع ان حالة اغنياء الاسراء هي اقل شراً من هذا . كلا ، بل
هم اشق واقل عافية واقصر عمرا من هذا ؛ اذا قصتهم بعض المنفصات ،
تزيد فيهم مشاق التظاهر بالراحة والرفاه والعزة والمنعة ، تظاهراً ان صح
قابله فكثيره الكاذب ، حمل ثقيل على عواتقهم كالسكران يتصاحي فيبتلي
بالصداع ، او كالعاهرة البائسة تتضحك لترضي الزاني .

حياة الاسير تشبه حياة النائم المزعوج بالاحلام ، ففي حياة لاروح فيها ،
حياة وظيفتها تمثيل مندرسات الجسم فقط ولا علاقة لها بحفظ المزايا البشرية ؛
بناء عليه ، فاقد الحرية لانانية له لانه ميت بالنسبة لنفسه ، حي بالنسبة لغيره ،
كانه لاشيء في ذاته ، انما هو شيء بالاضافة . ومن كان وجوده في الوجود
بهذه الصورة وهي الفناء في المستبدين ، حق له ان لا يشمر بوظيفة شخصية
فضلا عن وظيفة اجتماعيه . ولولا ان ايس في الكون شيء غير تابع لنظام
حتى الجداد ، حتى فلنات الطبيعة والصدف التي هي مسببات لاسباب نادرة ،
لحكما بان ميمشة الاسراء هي محض فوضى ، لاشبه فوضى .

على ان التدقيق العميق ، يفيدنا بان للاسراء قوانين عربية في مقاومة

الفناء يصعب ضبطها وتعريفها ، انما الاسير يرضعها مع ابن امه و يتربى عليها ،
وقد يدع فيها بسائق الحاجة ؛ ويكون منهم الحاذق فيها علماً ، الماهر في
تطبيقها عملاً ، هو الموفق في ميدان حرب الحياة مع الذل كالهنود واليهود .
والعاجز عنها ، اما جاهل هذا القانون او العاجز فطرة عن اتباعه كالعرب مثلاً ،
فلا يخرج عن كونه كره يلعب بها صبيان الاستبداد ، تارة يضربون بها الارض
او الحيطان ، واخرى تناولها ارجلهم بالصفعان ؛ وهذا اذا كان عاجز الاسير عن
جهل ، واما اذا كان عاجزه كما يقال عن عرقها شمسي ، اي عن شيء من كرامة نفس ،
او قوة احساس ، او جسارة جنان ، يكون كالحجارة تتكسر ولا تلين .

قوانين حياة الاسير هي مقتضيات الشؤون المحيطة به ، التي تضطره لان
يطبق احساساته عليها ويدبر نفسه على موجبها ، وذلك نحو مقابلة التجبر عليه
بالتذلل والتصاغر ، وتعديل الشدة عليه بالتلاين والمطاوعة ، واعطاء المطلوب
منه بمد قليل من التمتع ولو ان المطلوب هو ابنه لمجزرة الجندية او بنته
لفراش شيخ شرير ؛ والمطالبة في الحقوق بصفة استعطاف كانه طالب صدقة
وكسب المعاش مع شكاية الحاجة ، وحفظ المال باخفائه عن الاعين ، والتعامي
عن زلات المستبدين ، والتصامم عن سماع ما يهان به ، وانتظاره بفقد الحس
او تعطيلة بالمخدرات القوية كالافيون والحشيش ، وتعطيل العقل بالتباه وستر
العلم بالتجاهل ، والارتداء بالتدين والرياء ، وتعويد اللسان على الزلافة في
عبائر التصاغر والتملق ؛ وعزو كل خير الى فضل المستبدين حتى اذا كان

الخير طبيعياً نحو مطر السماء، فعزوه الى يمن الحكام او دعاء الكهان . ويسند كل شر ولو من نوع التسلط على الاعراض ، الى الاستحقاق من جانب الله . الى غير ذلك من احكام ذلك القانون ، الذي رؤوس مسائله فقط تمل القارى فضلا عن تفصيلاتها .

ان اخوف ما يخافه الاسير هو ان يظهر عليه اثر نعمة الله في الجسم او المال ، فتصيبه عين الجواسيس (وهذا اصل عقيدة اصابة العين) ؛ ، وان يظهر له شأن في علم او جاه او نعمة مهمة ، فيسعى به حاسدوه الى المستقبل (وهذا اصل شر الحسد الذي يتعود منه) ؛ ، وقد يتحيل الاسير على حفظ ماله الذي يمكنه اخفائه كالزوجة الجميلة ، او الدابة الثمينة ، او الدار الكبيرة ، فيحتملها باسناد الشؤم ، (وهذا اصل التشاؤم بالاقدام والنواصي والاعتاب) .

ومن غريب الاحوال ان الاسراء يبغضون المستبد ، ولا يقوون على استمطامهم معه البأس الطبيعي الموجود في الانسان اذا غضب ، فيصرفون بأسهم في وجه اخرى ظلما : فيعادون من بينهم فئة مستضعفة ، او الغرباء ، او يظلمون نساءهم ونحو ذلك . ومثلهم في ذلك الكلاب الاهلية ، اذا اريد منها الحراسة والشراسة فأصحابها يربطونها نهاراً ويطلقونها ليلا فتصير شرسة عقورة ، وبهذا التعليل تعلل جسارة الاسراء احياناً في محارباتهم ، لانهما جسارة عن شجاعة ؛ و احياناً تكون جسارة الاسراء عن التناهي في الجبانة امام المستبد ، الذي يسوقهم الى الموت فيطبعونه اندثاراً كما تطبع الغنمة الذئب

فهرول بين يديه الى حيث يأكلها .



وقد اتضح بما تقدم ان التربية غير مقصودة ولا مقدورة في ظلال الاستبداد الا ما قد يكون بالتخويف من القوة القاهرة ، وهذا النوع يستلزم انخلاع القلوب لا تزكية النفوس . وقد أجمع علماء الاجتماع والاخلاق والتربية على ان الاقناع خير من الترغيب فضلا عن التهيب ، وان التعليم مع الحرية بين المعلم والمتعلم ، افضل من التعليم مع الوقار ، وان التعليم عن رغبة في التكمّل ارسخ من العلم الحاصل طمعا في المكافأة ، او غيره من الاقران . وعلى هذه القاعدة بنوا قولهم : ان المدارس تقلل الجنايات لا السجون ، وقولهم : ان القصص والمعاقبة قلما يفيدان في زجر النفس كما قال الحكيم العربي :

لا ترجع الانفس عن غيرها مالم يكن منها لها زاجر
ومن يتأمل جيداً في قوله تعالى : « واكم في القصص حياة يا أولي
الالباب » ملاحظاً ان معنى القصص لغة هو التساوي مطلقاً لا مقصوراً على
المعاقبة بالمثل في الجنايات فقط ، ويدقق النظر في القرآن الكريم وسائر
الكتب السماوية ، ويتبع مسالك الرسل العظام عليهم الصلاة والسلام ، يرى
ان الاعتناء في طريق الهداية فيها منصرف الى الاقناع ، ثم الى الاطماع
عاجلاً او آجلاً ، ثم الى التهيب الآجل غالباً ومع ترك ابواب تدلى
الى النجاة .

ثم ان التربية التي هي ضالة الامم وفقدناها هو المصيبة العظمى ، التي هي المسألة الاجتماعية حيث الانسان يكون انساناً بتربيته ، وكما يكون الآباء يكون الابناء ، وكما تكون الافراد تكون الامة ؛ والتربية المطلوبة هي التربية المرتبة على اعداد العقل للتمييز ، ثم على حسن التفهيم والاقناع ، ثم على تقوية الهمة والعزيمة ، ثم على التمرين والتعويد ، ثم على حسن القدوة والمثال ، ثم على المواظبة والاقناع ، ثم على التوسط والاعتدال ؛ وان تكون تربية العقل مصحوبة بتربية الجسم ، لانها متصاحبان صحة واعتلالا ، فانه يقتضي تعويد الجسم على النظافة وعلى تحمل المشاق ، والمهارة في الحركات ، والتوقيت في النوم والغذاء والعبادة ، والترتيب في العمل وفي الرياضة والراحة . وان تكون تلكا التربيتين مصحوبتين ايضاً بتربية النفس على معرفة خالقها ومراقبته والخوف منه . فاذا كان لامطمع في التربية العامة على هذه الاصول بمانع طبيعة الاستبداد ، فلا يكون لعقلاء المبطلين به الا ان يسعوا اولاً وراء ازالة المانع الضاغط على العقول ، ثم بعد ذلك يعقنوا بالتربية حيث يمكنهم حينئذ ان ينالوها على توالي البطون والله الموفق .

الاستعداد والترقي

الحركة سنة عاملة في الخليقة دائبة بين شخوص وهبوط . فالترقي هو الحركة الحيوية اي حركة الشخوص ، ويقابله الهبوط وهو الحركة الى الموت او الانحلال او الاستحالة او الانقلاب .

وهذه السنة كما هي عاملة في المادة واعراضها ، عاملة ايضاً في الكيفيات ومركباتها ، والقول الشارح لذلك آية : « ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، وحديث : « ماتم امر الا وبدانقصه ، وقولهم : « التاريخ يعيد نفسه » . وحكمهم بان الحياة والموت حقان طبيعيان .

وهذه الحركة الجسمية والنفسية والعقلية لاتقضي السير الى النهاية شخوصاً او هبوطاً ، بل هي اشبه بميزان الحرارة كل ساعة في شأن ، والعبارة في الحكم للوجهة الغالبة ؛ فاذا رأينا في امة آثار حركة الترقى هي الغالبة على افرادها ، حكمتها بالحياة . ومتى رأينا عكس ذلك قضينا عليها بالموت .

الامة هي مجموع افراد يجمعها نسب او وطن او لغة او دين ، كما ان البناء بمجموع اتقاض ، فحسبها تكون الانتقاض جنساً وجمالاً وقوة . يكون

البناء ، فاذا ترقى او انحطت افراد الاممة ترقى او انحطت هيئتها الاجتماعية ؛ حتى ان حالة الفرد الواحد من الاممة يؤثر في مجموع تلك الاممة ، كما اذا لو اختلفت حجرة من حصن يحتل بمجموعه وان كان لا يشعر بذلك ؛ كما لو وقفت بموضة على طرف سفينة عظيمة اثقلتها وامالتها حقيقة وان لم يدرك ذلك بالشاعر . وبعض السياسيين بنى على هذه القاعدة انه يكفي الاممة رقيبا ان يجتهد كل فرد منها في ترقية نفسه بدون ان يفكر في ترقى مجموع الاممة .

الترقى الحيوي الذي يتدرج فيه الانسان بفطرته وهيمته هو اولا : الترقى في الجسم صحة وتلذا ؛ ثانياً : الترقى في القوة بالعلم والمال ؛ ثالثاً : الترقى في النفس بالتحصيل والمفاخر ؛ رابعاً : الترقى بالمائلة استثناساً وتعاوناً ؛ خامساً : الترقى بالعشيرة تناصراً عند الطواريء ؛ سادساً : الترقى بالانسانية وهذا منتهى الترقى .

وهناك نوع آخر من الترقى يتعلق بالروح وبالكمال ، وهو ان الانسان يحمل نفساً ملهمة بان لها وراء حياتها هذه حياة اخرى تترقى اليها على سلم العدل والرحمة والحسنات . فأهل الاديان ماعدا اهل التوراة يؤمنون بالبعث او التناسخ ، فيأتون بالعدل والرحمة رجاء المكافأة او خوف المجازاة ، وهم من قبيل الطبيعيين يعتبرون انهم مديونين للانسانية بحفظها تاريخ الحياة الطبيعية ، فيلتزمون خدمتها اهتماماً بحياتهم التاريخية بحسن الذكر او قبحه .

وهذه الترقيات على انواعها الستة لايزال الانسان يسمى وراها مالم يعترضه مانع غالب يسلب ارادته . وهذا المانع اما هو القدر المحتوم ، المسمى

عند البعض بالعجز الطبيعي ، او هو الاستبداد المشؤوم . على ان القدر قد
يصدم سير الترقى لمحة ثم يطلقه في فكر راقيا . واما الاستبداد فانه يقرب السير
من الترقى الى الانحطاط ، من التقدم الى التأخر ، من النماء الى الفناء ،
ويلازم الامة ملازمة الغريم الشحيح ، ويفعل فيها دهرأ طويلا افعاله التي
تقدم وصف بعضها في الابحاث السابقة . افعاله التي تبلغ بالامة حطة المجاوزات
ولا يهملها غير حفظ حياتها الحيوانية فقط ، بل قد تبيح حياتها هذه الدنيئة
ايضا للاستبداد اباحة ظاهرة او خفية . ولا عار على الانسان ان يختار
الموت على الذل ، وهذه سباع الطير والوحوش اذا اسرت كبيرة قد تأبى
الغذاء حتى تموت .

وقد يبلغ فعل الاستبداد بالامة ان يحول ميلها الطبيعي من طلب الترقى
الى طلب التسفل ، بحيث لو دفعت الى الرفعة لأبت وتألقت كما يتألم الاجهر
من النور ، واذا الزمت بالحرية تشق وربما تفتى كالبهايم الاهلية اذا اطلق
سراحها . وعندئذ يصير الاستبداد كالعلق يطيب له المقام على امتصاص دم
الامة ، فلا ينفك عنها حتى تموت ويموت هو بموتها .

وتوصف حركة الترقى والانحطاط في الشؤون الحيوية للانسان انها من
نوع الحركة الدودية ، التي تحصل بالاندفاع والانتقباض . وذلك ان الانسان
يولد وهو اعجز حراكا وادراكا من كل حيوان ، ثم يأخذ في السير تدفمه
« الرغائب » النفسية والعقلية وتقبضه « الموانع » الطبيعية والمزاحمة . وهذا
سر ان الانسان يتنابه الخير والشر . وهو سر ماورد في القرآن الكريم من

ابتلاء الله الناس بالخير وبالشر . وهو معنى ماورد في الاثر من ان الخير مربوط بذيل الشر ، والشر مربوط بذيل الخير . وهو المراد من اقوال الحكماء نحو : على قدر النعمة تكون النعمة ؛ على قدر الهمم تأتي العزائم ؛ بين السعادة والشقاء حرب سجال ؛ العاقل من يستفيد من مصيبته والكيس من يستفيد من مصيبته ومصيبة غيره ؛ والحكيم من يتهدج بالمصائب ايقظ منها القوائد ؛ ما كان في الحياة لذة لو لم يتخلها آلام .

اذا تقرر هذا فليعلم ايضاً ان سبيل الانسان هو الى الرقي ، مادام جناح الاندفاع والانقباض فيه متوازنين كتوازن الايجابية والسلبية في الكهرباء ؛ وسيله القهقري ان غلبته الطبيعة او المزاحمة . ثم ان الاندفاع اذا غلب فيه العقل النفس ، كانت الوجة الى الحكمة ؛ وان غلبت النفس العقل ، كانت الوجة الى الزيف . اما الانقباض فالمتدل منه هو السائق للعمل ، والقوي منه هلك مسكن للحركة ، والاستبداد المشؤوم الذي نبحت فيه هو قابض ضاغط مسكن والمبتلون به هم المساكين . نعم : اسراء الاستبداد احق بوصف المساكين من عجزة الفقراء .

ولو ملك الفقهاء حرية النظر لخرجوا من الاختلاف في تعريف المساكين الذين جعل الله لهم نصيباً من الزكاة فقالوا : هم عبيد الاستبداد ، ولجأوا كقارات فك الرقاب تشمل هذا الرق الاكبر .
اسراء الاستبداد حتى الاغنياء منهم كلهم مساكين لاجراك فيهم ، يعيشون منحطين في الادراك ، منحطين في الاحساس ، منحطين في الاخلاق .

وما اظلم توجيه اللوم عليهم بغير لسان الرأفة والارشاد ؛ وقد ابدع من شبه
حالتهم بدود تحت صخرة ؛ فما أليق باللائمين ان يكونوا مشفقين يسمون في
رفع الصخرة ولو حثا بالاظافر ذرة بعد ذرة .

قد اجمع الحكماء على ان اهم مايجب عمله على الآخذين بيد الامم ، الذين
فيهم نسمة مزوءة وشرارة حمية ، الذين يعرفون ماهي وظيفتهم بازاء الانسانية
الملتجئين لآخوانهم المافية ، ان يسموا في رفع الضغط عن العقول لينطلق
سبيلها في النمو فتمزق غيوم الاوهام التي تعطر المخاوف ، شأن الطبيب في
اعتنائه اولا بقوة جسم المريض ؛ وان يكون الارشاد متناسبا مع الغفلة خفة
وقوة : كاساهي ينهبه الصوت الخفيف ، والناائم يحتاج الى صوت اقوى ،
والغافل يلزمه صياح وزجر . فالاشخاص من هذا النوع الاخير ، يقتضي
لايقاظهم الآن بعد ان ناموا اجيالا طويلة ، ان يسقيهم النطاسي البارح مرأ
من الزواجر والقوارص عليهم يفيقون ، والافهم لايفيقون حتى يأتي القضاء
من السماء : فتبرق السيوف وترعد المدافع وتمطر البنادق ، فحينئذ يصحون
ولكن صحوة الموت !

بعض الاجتماعيين في الغرب يرون ان الدين يؤثر على الترقى الافرادى
ثم الاجتماعي تأثيراً معطلا كفعل الافيون في الحس ، او حاجباً كالغيم ينشى
نور الشمس . وهناك بعض القلاة يقولون : الدين والعقل ضدان متزاحمان
في الرؤوس ، وان اول نقطة من الترقى تبندى عند آخر نقطة من الدين ،
وان اصدق مايستدل به على مرتبة الرقى والانحطاط في الافراد او في الامم

الغابرة والحاضرة ، هو مقياس الارتباط بالدين قوة وضمناً .

هذه الآراء كلها صحيحة لاجمال الدرد عليها ، ولكن بالنظر الى الاديان الخرافية اساساً او التي لم تقف عند حد الحكمة ، كالدين المبني على تكليف العقل بتصور ان الواحد ثلاثة والثلاثة واحد ، لان مجرد الاذعان لما لا يعقل برهان على فساد بعض مراكز العقل . ولهذا اصبح العالم المتمدن يعد الانتساب الى هذه العقيدة من العار لانه شعار الحق .

اما الاديان المبنية على العقل المحض كالاسلام الموصوف بدين الفطرة ، ولا اعني بالاسلام ما يدين به اكثر المسلمين الآن ، انما اريد بالاسلام : دين القرآن ، اي الدين الذي يقوى على فهمه من القرآن كل انسان غير مقيد الفكر بتفصيح زيد او تحكيم عمرو .

ولا شك ان الدين اذا كان مبنيًا على العقل ، يكون افضل صارف للفكر عن الوقوع في مصائد الخرفين ، وانفع وازع يضبط النفس من الشطط ، واقوى مؤثر تهذيب الاخلاق ، واكبر معين على تحمل مشاق الحياة ، واعظم منشط على الاعمال المهمة الخطرة ، واجل مثبت على المبادئ الشريفة ، وفي النتيجة يكون اصح مقياس يستدل به على الاحوال النفسية في الامم والافراد رقيًا وانحطاطًا .

هذا القرآن الكريم اذا اخذناه وقرأناه بالتروي في معاني الفاظه العربية واسلوب تركيبه القرشي ، مع تفهم اسباب نزول آياته وما اشارت اليه ، ومع التبصر في مقاصده الدقيقة وتشريعه السامي ، ومع اخذ بعض

التوضيحات من السنة العملية النبوية او الاجماع ان وجدا ، وقلما يوجدان ،
فحينئذ لانرى فيه من اوله الى آخره غير حكم يتلقاها العقل بالاجلال
والاعظام ، الى درجة انقياد العقل طوعا او كرها للايمان اجمالا بان تلك
الحكم حكم عزيزة الهية ، وان الذي انزلها الله على قلبه هــ و افضل من ارسله
الله مرشداً لعباده .

وتوضيح ذلك : ان الناظر في القرآن حق النظر يرى انه لا يكلف
الانسان قط بالاذعان لشيء فوق العقل ، بل يحذره وينهاه من الايمان اتباعا
لرأي الغير او تقليداً للآباء . ويراہ طافحاً بالتنبيه الى اعمال الانسان فكره
ونظره في هذه الكائنات وعظيم انتظامها : ثم الاستدلال بذلك الى ان لهذه
الكائنات صانعا ابدعها من العدم ؛ ثم الانتقال الى معرفة الصفات التي يستلزم
العقل ان يكون هذا الصانع متصفا بها ، او منزها عنها ؛ ثم يرى القرآن يعلم
الانسان بعض اعمال واحكام واوامر ونواهي كلها لاتبلغ المائة عدداً وكلها
بسيطة معقولة ؛ الا قليلا من الامور التعبدية التي شرعت لتكون شعاراً
يعرف به المسلم اخاه ، او يستطلع من خلال قيامه بها او تهاونه فيها اخلاقه ،
فيستدل مثلاً بانتكاسه عن الصلاة على فقد النشاط ، وبترك الصوم على عدم
الصبر ، وبالسكر على غلبة النفس العقل ونحو ذلك .

وكفي بالاسلامية رقيافي التشريع ، رقيها بالبشر الى منزلة حصرها اسارة
الانسان في جهة شريفة واحدة وهي (الله ﷻ) ؛ وعتقها عقل البشر من توهم
وجود قوة ما في غير الله من شأنها ان تأتي للانسان بخير ما ، او تدفع عنه

شراً ما . فالاسلامية تجعل الانسان لا يرجو ولا يهاب من رسول او نبي او ملك او فلك ، او ولي او جنى او ساحرا او كاهن ، او شيطان او سلطان .

واعظم بهذا التعليم الذي يرمي الانسان به عن عاتقه جبالا من الخوف والاوهام والخيالات . جبالا اعتقلها منذ كان يسرح مع الغيلان ، او ورثها من ابيه ادم الذي طغاه شيطان النفس . او ليس العتيق من الاوهام يصبح صحيح العقل ، قوي الارادة ، ثابت العزيمة ، قائده الحكمة ، سائقه الوجدان فيعيش حراً ، فرحاً صبوراً فخوراً ، لا يبالي حتى بالموت لعلمه بالسعادة التي يستقبلها ، التي يمثلها له القرآن بالجنان فيها الروح والريحان، والحور والغلمان، فيها كلما تشتهي النفس وتقر به العينان .

واظن ان هؤلاء المنكرين فائدة الدين ، ما انكروا ذلك الا من عدم اطلاعهم على دين صحيح مع بأسهم من اصلاح مآلديهم ، عجزا عن مقاومة انصار الفساد . واذا نظرنا في ان هؤلاء انفسهم هم في آن واحد يشددون النكير على الدين من جهة قائلين ان ضرره اكبر من نفعه ، ويهيجون من جهة اخرى مؤثرات ادبية وهمية محضاً يرون انه لا بد منها في بناء الامم ، وذلك مثل حب الوطن وحياته ، وحب الانسانية والاساءة اليها ، والسمعة الحسنة وعكسها ، والذكر التاريخي بالخير او الشر ونحو ذلك مما هو لاشيء في ذاته ، ولا شيء ايضاً بالنسبة الى تأثير طاعة الله والخوف منه ، لان (الله) حقيقة لا ريب فيها ، بل ولا خلاف الا في الاسماء بين (الله) وبين (مادة) او (طبيعة) . ولولا ان الماديين والطبيين يأبون الاسترسال في البحث في

صفات مايسمونه مادة او طبيعة، لالتقوا ولا بشك مع الاسلام في نقطة
واحدة فارتفع الخلاف العلمي واسلم الكل لله .



وعلى ذكر الوم الارشادي لاح لي ان اصـور الرقي والانحطاط في
النفس ، وكيف ينبغي للانسان العاقل ان يعاني ايقاظ قومه ، وكيف يرشدهم
الى انهم خلقوا لغير ما هم عليه من الصبر على الذل والسفالة، فيذكرهم ويحرك
قلوبهم ويناجيهم وينذرهم بنحو الخطابات الآتية :

« يا قوم ، ينازعني والله الشعور ، هل موقفي هذا في جمع حي فاحييه بالسلام
ام انا اخاطب اهل القبور فاحييهم بالرحمة ؛ يا هؤلاء ، لستم بأحياء عاملين ،
ولا اموات مستريحين ، بل انتم بين بين : في برزخ يسمى التنتب ، ويصح
تشبيهه بالنوم . يارباه : اني ارى اشباح اناس يشبهون ذوي الحياة وهم في
الحقيقة موتى لا يشعرون ، بل هم موتى لانهم لا يشعرون . »

« يا قوم ، هداكم الله، الى متى هذا الشقاء المديد والناس في نعيم مقيم، وعز
كريم ، افلا تنظرون ؟ وما هذا التأخر وقد سبقتمكم الاقوام الوف مراحل،
حتى صار ما بعد وراءكم وراء ؟ افلا تتبعون ؟ وما هذا الانحفاض والناس في
اوج الرفعة ، افلا تغارون ؟ اناشدكم الله ، هل طابت لكم طول غيبة الصواب
عنكم ؟ ام انتم كاهل ذلك الكهف ناموا الف عام ثم قاموا ، واذا بالدنيا غير
الدنيا والناس غير الناس فاخذتهم الدهشة والترمووا السكون ؟ . »

«يا قوم، وقاكم الله من الشر، اتم بعيدون عن مفاخر الابداع وشرف القدوة، مبتلون بداء التقليد والتبعية في كل فكر وعمل، وبداء الحرص على كل عتيق كانكم خلقتكم الماضي للاحاضر: تشكون حاضركم وتسخطون عليه، ومن لي ان تدركوا ان حاضركم نتيجة ماضيكم، ومع ذلك اراكم تقلدون اجدادكم في الوسوس والحرافات والامور السافلات فقط، ولا تقلدوهم في محامدهم؟ اين الدين؟ اين التربية؟ اين الاحساس؟ اين الغيرة؟ اين الجسارة؟ اين الثبات؟ اين الرابطة؟ اين المنعة؟ اين الشهامة؟ اين النخوة؟ اين الفضيلة؟ اين المواسة؟ هل تسمعون ام اتم صم لاهون؟» .

«يا قوم، عفاكم الله، الى متى هذا النوم، والى متى هذا التقلب على فراش البأس ووسادة اليأس؟! اتم مفتحة عيونكم ولكنكم نيام، لكم ابصار ولكنكم لا تنظرون، وهكذا لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور. لكم سمع ولسان ولكنكم صم بكم؟ ولكم شبيهه الحس ولكنكم لا تشعرون به ما هي الذائد حقاً وما هي الآلام؟ ولكم رؤوس كبيرة ولكنها مشغولة بمزعجات الاوهام والاحلام؛ ولكم نفوس حقها ان تكون عزيزة ولكن اتم لا تعرفون لها قدر أو مقاما» .

«يا قوم، قاتل الله العباوة، فانها تملئ القلوب رعباً من لاشي، وخوفاً من كل شيء، وتغمم الرؤوس كشويشاً وسخافة. أليست هي العباوة جعلتكم كأنتكم قد مسكم الشيطان، فتخافون من ظلمكم وترهبون من قوتكم وتحيشون منكم عليكم جيوشاً ليقتل بعضكم بعضاً. تترامون على الموت خوف الموت،

وتحبسون طول العمر ففكرتم في الدماغ ونطقكم في اللسان واحساسكم في
الوجدان خوفا من ان يسجنكم الظالمون ، وما يسجنون غير ارجلكم
اياما . فما بالكم يا حلاس النساء مع الذل تخافون ان تصيروا جلاس الرجال
في السجون ؟ .

« يا قوم ، اعبدكم بالله من فساد الرأي ، وضياع الحزم ، وقد الثقة بالنفس
وترك الارادة للغير . فهل ترون اثرأ للرشد في ان يوكل الانسان عنه وكيلا
ويطلق له التصرف في ماله واهله ، والتحكم في حياته وشرفه والتأثير على
دينه وفكره ، مع تسليم هذا الوكيل العفو عن كل عبث وخيانة واسراف
واتلاف ، ام ترون ان هذا النوع من الجينة به يظلم الانسان نفسه ، هل خلق
الله لكم عقلا لتفهموا به كل شيء ، ام لتهملوه كأنه لاشيء ؟ ان الله لا يظلم
الناس شيئا واكن الناس انفسهم يظلمون . »

« يا قوم ، شفاكم الله ، قد ينفع اليوم الانذار واللوم ، واما غدا اذا حل
القضاء ، فلا يبقى لكم غير الندب والبكاء . فالى متى هذا التخادع والتخاذل ،
والى متى هذا التواني والتدابير ، والى متى هذا الاهمال ؟ هل طاب لكم النوم
على الوسادة اللينة ، وسادة الخمول ، ام طاب لكم السكون وتودون لو
تسكنون القبور ، ام عاهدتم انفسكم ان تصلوا غفلة الحياة باللمات ، فلا تفيقوا من
السبات قبل صباح يوم النشور ، يوم تملو السيوف رقابكم وتصبي المدافع
اذانكم فتمسون الاذلاء حقا وحق لكم ان تذلوا ؟ . »
« يا قوم ، رحمكم الله ، ما هذا الحرص على حياة تعيسة دنيئة لاتملكونها

ساعة . ما هذا الحرص على الراحة الموهومة وحياتكم كلها تعب ونصب؟ هل
 لكم في هذا الصبر فخر أو لكم عليه اجر . كلا والله ساء ماتوهمون ،
 ليس لكم الا القهر في الحياة ، وقبيح الذكر بعد المات ، لانكم ما فدمتم
 الوجود شيئاً ، بل اتلقتهم ماورثتم عن السلف وصرتهم بئس الواسطة للخلف .
 الستم ياناس مديونين للاسلاف بكل ما انتم فيه من الترقى عن انسان الغابات ؟
 فاذا لم تكونوا اهلا للمزيد فكونوا اهلا للحفاظ ، وهذه المعجوات تنقل
 رقيها لنسلها بامانة .

« يا قوم حماكم الله قد جاءكم المستمتعون من كل حذب ينسلون ؛ فان
 وجدوكم ايقاظاً عاملوكم كما يتعامل الجيران ويتعامل الاقران ، وان وجدوكم
 رقودا لانشعرون سلبوا اموالكم ، وزاحموكم على ارضكم ، وتحيّلوا على
 تذييلكم ، واوثقوا ربطكم واتخذوكم انعاما ، وعندئذ لو اردتم حراكا
 لا تقوون ، بل تجدون القيود مشدودة والابواب مسدودة لانجاة
 ولا مخرج . »

« يا قوم ، هون الله مصابكم . تشكون من الجهل ولا تنفقون على التعليم
 نصف ماتصرفون على التدخين ؛ تشكون من الحكام ، وهم اليوم منكم ، فلا
 تسمعون في اصلاحهم . تشكون فقد الرابطة ، واكم روابط من وجوه
 لا تفكرون في احكامها . تشكون الفقر ولا سبب له غير الكسل . هل
 ترجون الصلاح وانتم يخادع بعضكم بعضاً ؟ ولا تخدعون الا انفسكم . ترضون
 بادنى المعيشة عجزاً تسمونه قناعة . وتهملون شؤونكم تهوانا تسمونه توكلا .

توهون عن جهلكم الاسباب بقضاء الله وتدفعون عار المسببات بمطهرها على
القدر ، الا والله ما هذا شأن البشر .

« يا قوم ، ساعكم الله ، لا تظلموا الاقدار وخافوا غيرة المنعم الجبار . الم
يخلقكم اكفاء احراراً طلقاء لا يثقلكم غير النور والنعيم ، فايتم الا ان تحموا
على عواتقكم ظلم الضعفاء وقهر الاقوياء ! لو شاء كبيركم ان يحتمل صفة يركم
كرة الارض حتى له ظهره ، ولو شاء ان يركبه لطأطأ لرأسه . ماذا استفدتم
من هذا الخضوع والخشوع لغير الله ؟ وماذا ترجون من تقبيل الاذيال
والاعتاب وخفض الصوت ونكس الرأس . اليس منشأ هذا الصغار كله
هو ضعف ثقنتكم بانفسكم ، كانكم عاجزون عن تحصيل ما تقوم به الحياة ،
وحسب الحياة لقيام من نبات تقمن ضلع ابن آدم ، وقد بذلها الخلاق لضعف
الحيوان ؛ هذه الوحوش تجد فرائسها اينما حلت ، وهذه الهوام لاتفقد
قوتها ؛ فما بال الرجل منكم يضع نفسه مقام الطفل الذي لا ينال من الكبير
مراده الا بالتذلل والبكاء ، او موضع الشيخ الفاني الذي لا ينال حاجته
الا بالتعلق والدعاء ؟ »

« يا قوم ، رفع الله عنكم المكروه ، ما هذا التفاوت بين افرادكم وقد خلقكم
ربكم اكفاء في البنية ، اكفاء في القوة ، اكفاء في الطبيعة ، اكفاء في
الحاجات ، لا يفضل بضعكم بضعاً الا بالفضيلة ، لاربوبية بينكم ولا عبودية .
والله ليس بين صغيركم وكبيركم غير برزخ من الوهم . ولو درى الصغير بوجهه ،
العاجز بوجهه ، مافي نفس الكبير المتأله من الخوف منه لزال الاشكال وقضي

الامر الذي فيه تشقون ، يا عزاء الخلقه جهلاء المقام ، كان الناس في دور
الهمجية ، فكان دهاتهم بينهم آلهة وانبياء ، ثم ترقى الناس فهبط هؤلاء
لمقام الجبارة والاولياء ، ثم زاد الرقي فانحط اولئك الى مرتبة الحكام
والحكماء ، حتى صار الناس ناساً زال العناء وانكشف الغطاء وبان الكل
اكفاء . فاناشدكم الله في اي الادوار انتم ؟ الا تفكرون ؟ .

« يا قوم ، جعلكم الله من المهتدين ، كان اجدادكم لا ينحنون الا ركوعا
لله ، وانتم تسجدون لتقبيل ارجل المنعمين ولو بلقمة مغموسة بدم الاخوان .
واجدادكم ينامون الآن في قبورهم مستوين اعزاء ، وانتم احياء معوجة رقابكم
اذلاء . البهائم تود لو تتصب قاماتها وانتم من كثرة الخضوع كادت تصير
ايديكم قوائم . النباتات يطلب العلو وانتم تطلبون الانخفاض . لفظتكم الارض
لتكونوا على ظهرها وانتم حريصون على ان تنفروا في جوفها . فان كانت
بطن الارض بغيتم ، فاصبروا قليلا لتناموا فيها طويلا . »

« يا قوم ، الهمكم الله الرشد ، متى تستقيم قاماتكم وترتفع من الارض الى
السماء انظاركم ، وتميل الى التعالي نفوسكم ، فيشعر احدكم بوجوده في الوجود
فيعرف معنى الانانية ليستقل بذاته في ذاته ، يملك ارادته واختياره ويشق بنفسه
وربه ، لا يتكل على احد من خلق الله اتكالا الناقص في الخلق على الكامل
فيه ، او اتكالا الفاصب على مال الغافل ، او الكسل على سعي العامل ، بل
يرى احدكم نفسه انسانا كريما يعتمد على المبادلة والتعاوض فيسلف ثم
يستوفي ، ويستدين على ان يفي ؛ بل ينظر في نفسه انه هو الامة وحده . »

وما اجدر باحدكم ان يعمل لذيائه بنفسه لنفسه ، فلا يتكل على غيره ، كما
يعمل الانسان ليعبد الله بشخصه لا ينيب عنه غيره . فاذا فعلتم ذلك اظهر
الله بينكم ثمرة التضامن بلا اشتراط ، والتقاضي بلا محاشرة ، فتصيرون بنعمة
الله اخوانا .

« يا قوم ، ابعث الله عنكم المصائب وبصركم بالعواقب . ان كانت المظالم
غلت ايديكم ، وضيقت انفاسكم ، حتى صغرت نفوسكم ، وهانت عليكم هذه الحياة ،
واصبحت لاتساوي عندكم الجد والاجهد وامسيتم لاتبالون ا تعيشون ام تموتون ،
فلا تخبروني لماذا تحمكون فيكم الظالمين حتى في الموت ؟ اليس لكم من الخيار
ان تموتوا كما تشاؤون ، لا كما يشاء الظالمون ؟ هل سلب الاستبداد ارادتم
حتى في الموت ؟ كلا والله : ان انا احببت الموت اموت كما احب ، لثيماً او
كريماً ، حتفاً او شهيداً ؛ فان كان الموت ولا بد ، فلماذا الجبانة . وان
اردت الموت ، فليكن اليوم قبل الغد ، وليكن بيدي لا بيد عمرو . اليس

وطعم الموت في امر صغير كطعم الموت في امر عظيم

« يا قوم ، اناشدكم الله الا اقول حقاً اذا قلت انكم لاتمجبون الموت ، بل
تفرون منه ولكنكم تجهلون الطريق فتهربون من الموت الى الموت ، ولو
اهتديتم الى السبيل لعلمتم ان الهرب من الموت موت ، وطلب الموت حياة ،
ولعرفتم ان الخوف من التعب تعب ، والاقدام على التعب راحة ؛ ولفطنتم الى
ان الحرية هي شجرة الخلد وسقيها قطرات من الدم الاحمر المسفوح ،

والاسارة هي شجرة الزقوم ، وسقياها انهر من الدم الابيض اي الدموع؛
ولو كبرت نفوسكم لتفاخرتم بتزيين صدوركم بورد الجروح لابوسامات
الظالمين . .



« يا قوم ، واعني منكم المسلمين . . . ايها المسلمون : اني نشأت وشبت
وانا افكر في شأننا الاجتماعي عسى اهتدي لتشخيص دائنا فكنت اتقصي
السبب بعد السبب ، حتى اذا وقعت على ماظنه عاما ، اقول لعل هذا هو
جرثومة الداء ، فاتعمق فيه تمحيصاً واحلله تحليلاً ، فيكشف التحقيق عن
ان ماquam في الفكر هو سبب من جملة الاسباب ، او هو سبب فرعي لا اصلي ،
فاخيب واعدود الى البحث والتنقيب . وطالما امسيت واصبحت اجهد الفكر
في الاستقصاء ، وكثيرا ماسميت وسافرت لاستطلع آراء ذوي الآراء ، عسى
اهتدي الى مايشفي صدري من آلام بحث اتعني به ربي . وآخر مااستقرت
عليه سفينة فكري هو :

ان جرثومة دائنا هو خروج ديننا عن كونه دين الفطرة والحكمة ،
دين النظام والنشاط ، دين القرآن الصريح البيان ؛ الى صبغة انا جعلناه دين
الخيال والخيال ، دين الخلل والتشويش ، دين البدع والتشديد ، دين الاجتهاد .
وقد دب فينا هذا المرض منذ الف عام فتمكن فينا وأثر في كل شوؤونساء ،
حتى بلغ فينا استحكام الخلل في الفكر والعمل اننا لانرى في الخلق جل

شأنه نظاما فيما اتصف ، نظاما فيما قضى ، نظاما فيما امر ، ولا نطالب انفسنا فضلا
عن أمرنا او مأمورنا بنظام وترتيب واطراد ومثابرة .

وهكذا اصبحنا واعتقادنا مشوش ، وفكرنا مشوش ، وسياستنا مشوشة ،
ومعيشتنا مشوشة . فإين منا والحالة هذه الحياة الفكرية ، الحياة العملية ،
الحياة العائلية ، الحياة الاجتماعية ، الحياة السياسية ؟ . . .

« يا قوم ، قد ضيع دينكم وديناكم ساستكم الاولون وعلماؤكم المنافقون ،
واني ارشدكم الى عمل افرادي لا حرج فيه علما ولا عملا اليس بين جنبي
كل فرد منكم وجدان يميز الخير من الشر والمعروف من المنكر ولو تميزا
اجماليا ؛ اما بلغكم قول معلم الخير نبيكم الكريم عليه افضل الصلاة والتسليم :
« لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر او ليسلطن الله عليكم شراركم
فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » ، وقوله : « من رأى منكم منكرا فليغيره
بيده ، وان لم يستطع فليسانه ، وان لم يستطع فبقابه وذلك اضعف الايمان » .

« وانتم تعلمون اجماع ائمة مذاهبكم كلها على ان انكر المنكرات بعد
الكفر هو الظلم الذي فشا فيكم ، ثم قتل النفس ، ثم وثم ، . . . وقد اوضح
العلماء ان تغيير المنكر بالقلب هو بنص المتلبس به بغضا في الله . بناء عليه
فمن يعامل الظالم او الفاسق غير مضطر ، او يجامله ولو بالسلام ، يكون قد
خسر اضعف الايمان ، وما بعد الاضعف الالهدم اى فقد الايمان
والعياذ بالله .»

« ولا اظنكم تجهلون ان كلمة الشهادة والصوم والصلاة والحج والزكاة

كلها لاتغني شيئاً مع فقد الايمان ، انما يكون القيام حينئذ بهذه الشعائر ، قياما بعبادات وتقليدات وهوسات تضيع بها الاموال والاوقات .

« بناء عليه فالدين يكلفكم ان كنتم مسلمين ، والحكمة تلزمكم ان كنتم عاقلين : ان تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر جديكم ، ولا اقل في هذا الباب من ابطانكم البغضاء للظالمين والفاستين ، واطنكم اذا تألمتم قليلاً ترون هذا الدواء السهل المقدور لكل انسان منكم ، يكفي لاتقاذكم مما تشكون . والقيام بهذا الواجب متمين على كل فرد منكم بنفسه ، ولو اهمله كافة المسلمين . ولو ان اجدادكم الاولين قاموا به لما وصلتكم الى ما انتم عليه من الهوان . فهذا دينكم ، والدين ما يدن به الفرد لا ما يدن به الجمع ، والدين يقين وعمل ، لاعلم وحفظ في الاذهان . اليس من قواعد دينكم فرض الكفاية وهو ان يعمل المسلم ما عليه غير منتظر غيره ؟ »

« فاناشدكم الله يا مسلمين : ان لا يفرم دين لاتعاملون به وان كان خير دين ، ولا تفرنكم انفسكم بانكم امة خير او خيرة امة ، وانتم اتم المتواكلون المقترضون على شعار : « لاحول ولا قوة الا بالله العلي العظيم » . ونعم الشعار شعار المؤمنين ، ولكن اين هم ؟ اني لا اري امامي امة تعرف حقاً معنى « لا اله الا الله » ، بل اري امة خبثتها عبادة الظالمين ! » .



« يا قوم ، واعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين ، ادعواكم الى تناسي

الاساءات والاحقاد ، وما جناه الآباء والاجداد ، فقد كفى ما فعل ذلك على ايدي المثيرين ، واجلكم من ان لاتهمدوا لوسائل الاتحاد واتم المتنورون السابقون . فهذه امم اوستريا وامريكا قد هداها العلم اطرائق شتى واصول راسخة الاتحاد الوطني دون الديني ، والوفاق الجنسي دون المذهبي ، والارتباط السياسي دون الاداري . فما بالناس نحن لانفتكر في ان نتبع احدى تلك الطرائق او شبهها . فيقول عقلاؤنا المثيري الشحنةاء من الاعجام والاجانب : دعونا ياهؤلاء نحن ندبر شأننا ، نتفاهم بالفصحاء ، ونتراحم بالاخاء ، ونتواسى في الضراء ، ونتساوى في السراء . دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الاديان تحكم في الاخرى فقط . دعونا نجتمع على كلمات سواء الا وهي : فلتحي الامة ، فليحي الوطن ، فلنحي طلقاء اعزاء .

« ادعوكم واخص منكم النجباء للتبصر والتبصير فيما اليه المصير ، ليس مطلق العربي اخف استحقاقاً لآخيه من الغربي ؟ هذا الغربي قد اصبح ماديا لادين له غير الكسب ، فما تظاهرة مع بعضنا بالاخاء الديني الا مخادعة وكذبا . هؤلاء الفرنسيين يطاردون اهل الدين ، ويعملون على انهم يتناسونه ، بناء عليه لاتكون دعواهم الدين في الشرق ، الا كما يفرد الصياد وراء الاشباك .

لو كان للدين تأثير عند الغربي لما كانت البغضاء بين اللاتين والسكسون ، بل بين الطليان والفرنسيين ، ولما كانت بين الالمان والفرنسيين الغربيين . الغربي ارقى من الشرقي علما وثروة ومنعة ؛ فله على الشرقيين اذا واطنهم

السيادة الطبيعية . اما الشرقيون فيما بينهم ، متقاربون لايتغابنون .

الغربي يعرف كيف يسوس ، وكيف يتمتع ، وكيف يأسر ، وكيف يستأثر . فحتى رأى فيكم استعداداً واندفاعاً لجاراته او سبقه ، ضغط على عقولكم لتبقوا ورائه شوطاً كبيراً كما يفعل الروس مع البولونيين واليهود والتانار . وكذلك شأن كل المستعمرين . الغربي مها مكث في الشرق لا يخرج عن انه تاجر مستمتع ، فيأخذ فسائل الشرق ليغرسها في بلده التي لايفتأ يفخر برياضها ويحن الى ارباضها .

قد مضى على الهولانديين في الهند وجزائرها ، وعلى الروس في قازان ، مثل ماقمنا في الاندلس ، ولكن ماخدموا العلم والعمران بعشر ماخدمناها ، ودخل الفرنسيون الجزائر منذ سبعين عاماً ، ولم يسمحوابعدها لاهلها بحريده واحدة تقرأ . نرى الانكليزي في بلادنا يفضل قديده بلاده ، وسمك بحاره ، على طري لحنا وسمكنا . فلا والحالة هذه تبصرون يا اولي الالباب ؟ .



«وانت ايها الشرق الفخيم رعاك الله . ماذا دهاك ؟ ماذا اقمعدك عن مسراك ، اليست ارضك تلك الارض ذات الجنان والافنان ، ومنبت العلم والعرفان . وسمائك تلك السماء مصدر الانوار ، ومهبط الحكمة والاديان . وهوائك ذاك النسيم العدل ، لالعواصف والضباب . ومائك ذاك العذب الغدق ، لا الكدرولا الاجاج ؟ .»

« رعاك الله يا شرق ، ماذا اصابك فاخل نظامك ، والدهر ذاك الدهر ماغير وضعك ولا بدل شرعه فيك ؟ الم تزل مناطقك هي المعتدلة ، وبنوك هم الفائقون فطرة وعدداً ؟ اليس نظام الله فيك على عهده الاول ، ورابطة الاديان في بنيك محكمة قويمه ، مؤسسة على عبادة الصانع الوازع . ليست معرفة المنعم حقيقة راهنة اشرفت نيك شمسها ، أيدت بها عز النفس ، واحكمت بها حب الوطن وحب الجنس ؟ » .

« رعاك الله يا شرق ، ماذا عراك وسكنك منك الحراك ؟ الم تزل ارضك واسمة خصبة ، ومعادنك وافية غنية ، وحيوانك رابياً متناسلاً ، وعمراتك قائماً متواصلاً ، وبنوك على ما ربيتهم اقرب للخير من الشر ؟ اليس عندهم الحلم المسمى عند غيرهم ضعفاً في القلب ، وعندهم الحياء المسمى بالجبانة ، وعندهم الكرم المسمى بالاتلاف ، وعندهم القناعة المسماة بالعجز ، وعندهم العفة المسماة بالبلاهة ، وعندهم المجاملة المسماة بالذل ؟ نعم ، ما هم بالسالمين من الظلم ، ولكن فيما بينهم ؟ ولا من الخداع ، ولكن لا يفتخرون به ، ولا من الاضرار ، ولكن مع الخوف من الله . » .

« رعاك الله يا شرق ، لانرى من غير الدهر فيك ما يستوجب هذا الشقاء لبنيك ، ويستلزم ذاهم لبني اخيك . فلماذا قد اصبحت اذا انقطع عنك مدد اخيك بمصنوعاته ، يبقى ابناؤك عراة حفاة في ظلام ، بل يمنهم فقد الحديد بالرجوع الى العصر النحاسي بل الحجري الموصوف بمصر التعمين ؟ » .

« رعاك الله يا شرق ، بل رعى الله اخاك الغرب ، العائل بنفسه والعائل فيك ، وقاتل الله الاستبداد ، بل لمن الله الاستبداد ، المانع من الترقى في الحياة ، المنحط بالامم الى اسفل الدرجات . الا بعداً للظالمين . »

« رعاك الله يا غرب وحياك وبيئتك ، قد عرفت لاختيك سابق فضله عليك ، فوفيت وكفيت واحسنت الوصاية وهديت ، وقد اشدت مساعد بعض اولاد اخيك فهلا ينتدب بعض شيوخ احرارك لاعانة انجاب اخيك على هدم ذاك السور ، سور الشؤم والشور ، ليخرجوا باخوانهم الى ارض الحياة ، ارض الانبياء الهداة ، فيشكرون فضلك والدهر مكافأة . »

« يا غرب ، لا يحفظ لك الدين غير الشرق ان دامت حياته بحريته ، وقد الدين يهددك بالخراب القريب . فماذا اعددت للفوضى بين اذا صاروا جيشاً جراراً ؟ وماذا اعددت للبارك الحبلى بالثورة الاجتماعية هل تعد المواد المتفرقة ، وقد جاوزت انواعها الالف ، ام تعد الغازات الخائفة وقد سهل استحضارها على الصبيان ؟ . »

« يا قوم ، واريدهم شباب اليوم رجال الغد ، شباب الفكر رجال الجد ، اعيدكم من الخزي والخذلان بتفرقة الاديان ؛ واعيدكم من الجهل ، جهل ان الدينونة لله ، وهو سبحانه ولي السرائر والضمائر ، ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة . »

« اناشدكم ياناشئة الاوطان ، ان تعذروا هؤلاء الواهنة الخائرة قواهم الا في السنهم ، المعطل عملهم الا في التثبيط ، الذين اجتمع فيهم داء الاستبداد

والتواكل فجعلها آلة تدار ولا تدير . واسألكم عفوهم من العتاب والملام ،
لانهم مرضى مبتلون ، مثقلون بالقيود ، ملجمون بالحديد ، يقضون حياة خير
ما فيها انهم آبأؤكم .

« قد علمتم يا نجباء من طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد جملا كافية
للتأمل والتدبر ، فاعتبروا بنا واسألوا الله العافية :

نحن انما الادب مع الكبير ولو داس رقابنا . الفنا الثبات ثبات الاوتاد
تحت المطارق . الفنا الاقياد ولو الى المهالك . الفنا ان نعتبر التصاغر ادبا ،
والتذلل لطفاً ، واتملق فصاحة ، والمكنة رزانه ، وترك الحقوق سماحة ،
وقبول الاهانة تواضعاً ، والرضا بالظلم طاعة ، ودعوى الاستحقاق غروراً ،
والبحت عن العموميات فضولاً ، ومد النظر الى الغد املا طويلاً ، والاقدام
تهوراً ، والحمية حماقة ، والشهامة شراسة ، وحرية القول وقاحة ، وحرية
الفكر كفرأ ، وحب الوطن جنونا .

اما انتم ، حماكم الله من سوء ، فترجو لكم ان تنشأوا على غير ذلك ،
ان تنشأوا على التمسك باصول الدين ، دون اوهام المتفنين ، فتعرفوا قدر
نفوسكم في هذه الحياة فتكرمونها ، وتعرفوا قدر ارواحكم وانها خالدة
ثاب وتمجزي ؛ وتبعوا سنن النبيين فلا تخافون غير الصانع الوازع العظيم .
وترجو لكم ان تبنوا قصور فخاركم على معالي المهيم ومكارم الشيم ، لا على
عظام نخرة . وان تعلموا انكم خلقتم احرارا لتموتوا كراما ، فاجهدوا ان
تحياوا تلكا اليومين حياة رضية ، يتسنى فيها اكل منكم ان يكون سلطانا

مستقلاً في شؤونه ، لا يحكمه غير الحق ، ومديناً وفيماً لقومه لا يرضى عليهم
 بعين او عون ، وولداً باراً لوطنه ، لا يبخل عليه بجزء من فكره ووقته وماله ،
 ومحباً للانسانية يعمل على ان خير الناس انفعهم للناس ؛ يعلم ان الحياة هي
 العمل ، ووباء العمل القنوط ، والسعادة هي الامل ، ووباء الامل التردد ؛
 ويفقه ان القضاء والقدر هما عند الله ما يملكه ويمضيه ، وهما عند الناس السعي
 والعمل ؛ ويوقن ان كل اثر على ظهر الارض هو من عمل اخوانه البشر ،
 وكل عمل عظيم قد ابتدأ به فرد ثم تماوره غيره الى ان كمل ، فلا يتخيل
 الانسان في نفسه عجزاً ، ولا يتوقع الاخيراً ، وخير الخير للانسان ان
 يعيش حراً مقداماً او يموت .

«وكأني بسائلكم يسألني تاريخ التغالب بين الشرق والغرب ، فاجيب باننا
 كنا ارقى من الغرب علماً فنظاماً ففوة ، فكنا له اسايادا ! ثم جاء حين من
 الدهر لحق بنا الغرب فصارت مزاحمة الحياة بيننا سجالات : ان فقناه شجاعة
 فاقنا عدداً ، وان فقناه ثروة فاقنا باجتماع كلمته . ثم جاء الزمن الاخير ترقى
 فيه الغرب علماً فنظاماً ففوة . وانضم الى ذلك (اولاً) : قوة اجتماعه شعوباً
 كبيرة . (ثانياً) : قوة البارود حيث ابطل الشجاعة وجعل العبارة للعدد .
 (ثالثاً) : قوة كشفه اسرار الكيمياء والميكانيك . (رابعاً) : قوة الفحم
 الذي اهدته له الطبيعة . (خامساً) : قوة النشاط بكسره قيود الاستبداد .
 (سادساً) : قوة الامن على عقد الشركات المالية الكبيرة . فاجتمعت هذه
 القوات فيه وليس عند الشرق ما يقابلها غير الافتخار بالاسلاف وذلك حجة

عليه ؛ والغرور بالدين خلافا للدين ؛ فالمسلمون يقابلون تلك القوات بما يقال عند اليأس وهو (حسبنا الله ونعم الوكيل) ، ويخالفون امر القرآن لهم بان يمدوا ما استطاعوا من قوة ، لا ما استطاعوا من صلاة وصوم .

وكأني بسائلكم يقول : هل بمد اجتماع هذه القوات في الغرب واستيلائه على اكثر الشرق من سبيل لنجاة البقية ؟ . فاجيب قاطعاً غير متردد :
ان الامر مقدور وامله ميسور . ورأس الحكمة فيه كسر قيود الاستبداد .
وان يكتب الناشئون على جباههم عشر كلمات وهي :

- ١ - ديني ما اظهر ولا اخفي .
- ٢ - اكون حيث يكون الحق ولا ابالي .
- ٣ - انا حر وسأموت حراً .
- ٤ - انا مستقل لا اأكل على غير نفسي وعقلي .
- ٥ - انا انسان الجد والاستقبال لانسان الماضي والحكايات .
- ٦ - نفسي ومنفعتي قبل كل شي .
- ٧ - الحياة كلها تعب لذيد .
- ٨ - الوقت غال عزيز .
- ٩ - الشرف في العلم فقط .
- ١٠ - اخاف الله لاسواه .

« وانت ايها الوطن المحبوب : انت العزيز على النفوس ، المقدس في

القلوب ، اليك تحن الاشباح وعليك تنثن الارواح . . . ايها الوطن الباسي
ضعافه : عليك تبكي الميون وفيك يحلو المنون . الى متى يعبث خلاك اللئام
الطعام ؟ يظلمون بنيك ويدلون ذويك . يطاردون انجالك الانجاب ويمسكون
على المساكين الطرق والابواب ، يخربون العمران ويقفرون الديار ؟ .

ايها الوطن العزيز : هل ضاقت رحابك عن اولادك ، ام ضاقت احضانك
عن افلاكك ؟ . . . كلا ، انما فقدت الاباة ، فقدت الحماة ، فقدت الاحرار .
ايها الوطن الملهب فؤاده : اما رويت من سقيا الدموع والدماء؟ ولكن دموع
بناتك الثاكلات ودماء ابناءك الابرياء ، لادموع النادمين ولادماء الظالمين . الا
فاشرب هنيئاً ولا تأسف على البله الخاملين ؟ ولا تحزن ، فهاهم كرائمًا وكراما ،
لسن هن كرائمًا باكيات محمسات ، وليسوا هم كراما اعزة شهداء ؛ انما
هم ، غفر الله لهم ، من علمت ، قل فيهم الحر القيور ، قل فيهم من يقول انا
لا اخاف الظالمين .

ايها الوطن الحنون . كوّن الله عناصر اجسامنا منك . وجعل الامهات
حواضن ؛ ورزقنا الغذاء منك ، وجعل المرضعات مجهزات ، نعم ، خلقنا
الله منك ، فحق لك ان تحب اجزاءك وان تحن على افلاكك . كما يحق لك
في شرع الطبيعة ان لا تحب الاجنبي الذي يابى طبعه حبك ، الذي يؤذيك
ولا يواليك ، ويزاحم بنيك عليك ويشاركهم فيك ؛ وينقل الى ارضه ما في
جوفك من نفيس العناصر وكنوز المعادن فيفقرك ليغني وطنه ، ولا لوم عليه
بل بارك الله فيه !

« يا قوم ، جعلكم الله خيرة اليوم وعدة الغد ، هذا خطابي اليكم فيما هو الترتي وما هو الانحطاط ، فان وعيتم ولو شذرات ، فـيا بشراي والسلام عليكم ، والا فيما ضياع الاتقاس ، وعلى الرفاة السلام . »



الاستبداد الذي يبلغ في الانحطاط بالامة الى غاية ان تموت ويموت هو معها ، كثير الشواهد في قديم الزمان وحديثه ؛ اما بلوغ الترتي بالامم الى المرتبة القصوى السامية التي تليق بالانسانية ، فهذا لم يسمح الزمان حتى الآن بأمة تصلح مثالا له ؛ لانه الى الآن لم توجد امة حكمت نفسها برأيها العام حكما لا يشوبه نوع من الاستبداد ولو باسم الوقار والاحترام ، او بنوع من الاغفال ولو ببذر الشقاق الديني او الجنسي بين الناس .

فكان الحكمة الالهية ، لم تزل ترى البشر غير متأهلين لنوال سعادة الاخوة العمومية بالتحاب بين الافراد ، والقناعة بالمساواة الحقوقية بين الطبقات . نعم ، وجد للترتي القريب من الكمال بعض امثال قليلة في القرون الغابرة ، كالجهورية الثانية للرومان ، وكمهد الخلفاء الراشدين ، وكالازمنة المتقطعة في عهد بعض الملوك المنظمين للافاتحين مثل انوشروان وعبد الملك الاموي ونور الدين الشهيد وبطرس الكبير . وكبعض الجمهوريات الصغيرة والممالك الموقفة لاحكام التقييد الموجودة في هذا الزمان . واني اقتصر على وصف منتهى الترتي الذي وصلت اليه تلك الامم وصفا اجماليا ، واترك للمطالع

ان يوازن بينها وقيس عليها درجات سائر الامم .

وربما يستريب في ذلك المطالع المولود في ارض الاستبداد ، الذي لم يدرس احوال الامم في الوجود ، ولا عتب عليه فانه كالمولود اعمى لا يدرك للمناظر البهية معنى .

قد بلغ الترتي في الاستقلال الشخصي في ظلال الحكومات العادلة ، لان يعيش الانسان المعيشة التي تشبه في بعض الوجوه ما وعدته الاديان لاهل السعادة في الجنان . حتى ان كل فرد يعيش كأنه خالد بقومه ووطنه ، وكأنه امين على كل مطلب ، فلا هو يكلف الحكومة شططاً ولا هي تهمله استحقاراً :

١ - امين على السلامة في جسمه وحياته بحراسة الحكومة التي لاتنفل عن محافظة-ه بكل قوتها في حضره وسفره بدون ان يشعر بثقل قيامها عليه ، فهي تحيط به احاطة الهواء ، لاحاطة السور يلطمه كيفما التفت او سار .

٢ - امين على الملذات الجسمية والفكرية باعتناء الحكومة في الشؤون العامة ، المتعلقة بالترويضات الجسمية والنظرية والعقلية حتى يرى ان الطرقات المسهلة والتزيينات البلدية ، والمتنزهات ، والمنتديات ، والمدارس ، والجامع ونحو ذلك . قد وجدت كلها لاجل ملذاته ، ويعتبر مشاركة الناس له فيها لاجل احسانه ، فهو بهذا النظر والاعتبار لا ينقص عن اغنى الناس سعادة .

٣ - امين على الحرية ، كانه خلق وحده على سطح هذه الارض ، فلا يعارضه معارض فيما يخص شخصه من دين وفكر وعمل وامل .

٤ - امين على النفوذ ، كانه سلطان عزيز فلا يمانع له ولا معاكس في تنفيذ مقاصده النافعة في الامة التي هو منها .

٥ - امين على المزية ، كانه في امة يساوي جميع افرادها منزلة وشرفا وقوة ، فلا يفضل هو على احد ولا يفضل احد عليه ، الا بمزية سلطان الفضيلة فقط .

٦ - امين على العدل ، كانه هو القابض على ميزان الحقوق فلا يخاف تطفيفاً ، وهو الميمن فلا يحذر بحسماً ، وهو المطمئن على انه اذا استحق ان يكون ملكا صار ملكا ، واذا جنى جناية نال جزاءه لاجمالة .

٧ - امين على المال والملك ، كأن ما احرز به المشروع قليلا كان او كثيرا ، قد خلقه لله لاجله فلا يخاف عليه ، كما انه تطلع عينه ان نظر الى مال غيره .

٨ - امين على الشرف بضمان القانون ، بنصرة الامة ، ببذل الدم ، فلا يرى تحقيراً الا لدى وجدانه ، ولا يعرف طعماً لمرارة الذل والهوان .

اما الاسير ، ولا أحزن المطالع بوصف حالته ، فاكتفي بالقول انه لا يملك ولا نفسه ، وغير امين حتى على عظامه في رمسه ، اذا وقع نظره على المستبد او احد من جماعته على كثرتهم يتعوذ بالله ، واذا مر من قرب احدى دوائر

حكومته اسرع وهو يكرر قوله : « حمايتك يارب ان هذه الدار ، بأس الدار ، هي كالحجزة كل من فيها ما ذابح او مذبوح . ان هذه الدار كالكنيف (١) لا يدخله الا المضطر » .

* * *

وقد يبلغ الترقى في الاستقلال الشخصي مع التركيب بالعائلة والعشيرة ، ان يعيش الانسان معتبراً نفسه من وجه غنياً عن العالمين ، ومن وجه عضواً حقيقياً من جسم حي هو العائلة ثم الامة ، ثم البشر .

و يُنظر الى اتقسام البشر الى امم ، ثم الى عائلات ، ثم الى افراد ، هو من قبيل اتقسام الممالك الى مدن وهي الى بيوت وهي الى مرافق ؛ وكما انه لا بد لسكل مرفق من وظيفة معينة يصلح لها والا كان بناؤه عبثاً يستحق الهدم ، كذلك افراد الانسان لا بد ان يعد كل منهم نفسه لوظيفة في قيام حياة عائلته اولاً ، ثم حياة قومه ثانياً .

ولهذا يكون العضو الذي لا يصلح لوظيفة ، اولا يقوم بما يصلح له ، حقيراً مهاناً . وكل من يريد ان يعيش كلاً على غيره ، لا عن عجز طبيعي ، يستحق الموت لالشفقة ، لانه كالدرن في الجسم او كالزائد من الظفر يستحقان الاخراج والقطع ، ولهذا المبنى حرمت الشرائع السماوية الملاحية

(١) كلمة تركية معناها المرحاض .

التي ليس فيها ترويض ، والسكر المعطل عن العمل عقلا وجسا ، والمقامرة
والربا لانها ليسا من نوع العمل والتبادل فيه . وقد فضل الله الكناس على
الحجام وصانع الخبز على ناظم الشعر لان صنعتهما انفع للجمهور .
وقد بلغ ترقى التركيب في الامم الى درجة ان يصير كل فرد من الامة
مالكا لنفسه تماما ، ومملوكا لقومه تماما . فالامة التي يكون كل فرد منها
مستعدا لافتدائها بروحه وبماله ، تصير تلك الامة بحجة هذا الاستعداد في
الافراد ، غنية عن ارواحهم واموالهم .



الترقي في القوة بالعلم والمال يتميز على باقي انواع الترقيات السالفة البيان
تميز الرأس على باقي اعضاء الجسم ، فكما ان الرأس باحرازه مركزية العقل ، ومركزية
اكثر الحواس ، تميز على باقي الاعضاء واستخدمها في حاجاته ، فكذلك الحكومات
المنتظمة يترقي افرادها و مجموعها في العلم والثروة ، فيكون لهم سلطان طبيعي على
الافراد او الامم التي انحط بها الاستعداد المشؤوم الى حضيض الجهل والفقير .
بقي علينا بحث الترقى في الكمالات بالخصال والاثرة ، وبحث الترقى الذي
يتعلق بالروح اي بما وراء هذه الحياة ، ويرقى اليه الانسان على سلم الرحمة
والحسنات ، فهذه ابحاث طويلة الذيل ومتابها حكيما الكتب السماوية ،
ومدونات الاخلاق ، وتراجم مشاهير الامم .
واكتفي بالقول في هذا النوع ، انه يبلغ بالانسان مرتبة ان لا يرى

لحياته اهمية الابد درجات ، فهمه اولا : حياة امته ، ثم امتلاك حريته ، ثم امنه على شرفه ، ثم محافظته على عائلته ، ثم وقايته حياته ، ثم ماله ، ثم وثم ؛ وقد تشمل احساساته عالم الانسانية كله ، كأن قومه البشر لا قبيلته ، ووطنه الارض لابلده ، ومسكنه حيث يجد راحته ، لا يتقيد بمجران بيت مخصوص يستتر فيه ويفتخر به كما هو شأن الاسراء .

وقد يترفع الانسان عن الامارة لما فيها من معنى الكبر ، وعن التجارة لما فيها من التويه والتبذل ، فيرى الشرف في المحراث ، ثم المطرقة ، ثم القلم ، ويرى اللذة في التجديد والاختراع ، لافي المحافظة على العتيق ، كأنه وظيفة في ترقى مجموع البشر .

وخلاصة القول ان الامم التي يسعدها جدها لتبديد استبدادها ، تنال من الشرف الحسي والمعنوي مالا يحظر على فكر اسراء الاستبداد . فهذه بلجيكا ابطلت التكاليف الاميرية برمتها ، مكنتية في نفقاتها بناء فوائدهم الحكومة . وهذه سويسرة يصادفها كثيراً ان لا يوجد في سجونها محبوس واحد . وهذه امريكا اثرت حتى كادت تخرج الفضة من مقام النقد الى مقام المتاع . وهذه اليابان اصبحت تستنزف قناطر الذهب من اوروبا وامريكا ثمن امتيازات اختراعاتها وطبع تراجم مؤلفاتها .

وقد تنال ايضاً تلك الامم حظاً من الميزات الحقيقية ، التي لا تخاطر على فكر الاسراء ، كلذة العلم وتعليمه ، ولذة المجد والحماية ، ولذة الاثراء والتبذل ، ولذة احراز الاحترام في القلوب ، ولذة نفوذ الرأي الصائب ، ولذة الحب

الطاهر ، الى غير هذه الميزات الروحية . واما الاسراء والجهلاء فلذاتهم مقصورة على مشاركة الوحوش الضارية في المطاعم والمشارب واستفراغ الشهوة ، كان اجسامهم ظروف تملأ وتفرغ ، او هي دما مل تولد الصيد وتدفعه . وانفع ما بلغه الترقى في البشر ، هو احكامهم اصول الحكومات المنتظمة بيناتهم سدا متينا في وجه الاستبداد ، والاستبداد جرثومة كل فساد ، وبجعلهم الاقوة ولا نفوذ فوق قوة الشرع ، والشرع هو جبل الله المتين . وبجعلهم قوة التشريع في يد الامة ، والامة لا تجتمع على ضلال . وبجعلهم المحاكم تحكم السلطان والصلوك على السواء ، فتحاكي في عداتها المحكمة الكبرى الالهية . وبجعلهم العمال لاسبيل لهم على تعدي حدود وظائفهم ، كانوا ملائكة لا يعصون امراً ؛ وبجعلهم الامة يقظة ساهرة على مراقبة سير حكومتها ، لا تنفصل طرفة عين ، كما ان الله عز وجل لا يغفل عما يفعل الظالمون .

هذا مبلغ الترقى الذي وصلت اليه الامم منذ عرف التاريخ ، على انه لم يقم دليل الى الآن على ترقى البشر في السعادة الحيوية عما كانوا عليه في العصور الخالية حتى الحجرية ، حتى منذ كانوا عراة يسرحون اسرابا ، والآثار المشهودة لا تدل على اكثر من ترقى العلم والعمران وهما آلتان كما يصلحان للاسعاد ، يصلحان الاشقاء ، وترقيها هو من سنة الكون التي ارادها الله تعالى لهذه الارض وبنيتها ، ووصف لنا ما سيبلغ اليه ترقى زينتها واقتدار اهلها بقوله عز شأنه : « حتى اذا اخذت الارض زخرفها وازينت وظن اهلها انهم قادرون عايبها اتاها امرنا ليلا او نهارة فجعلناها حصيداً كان لم تنف

بالامس . . وهذا يدل على ان الدنيا وبنيها لم يزالا في مقتبل الترقى ، ولا يعارض
هذا ان ماضى من عمرها هو اكثر مما بقي حسبما اخبرت به الكتب السماوية ،
لان العمر شيء ، والترقى شيء آخر .

الاستعداد والتخلص منه

ليس لنا مدرسة اعظم من التاريخ الطبيعي ، ولا برهان اقوى من الاستقراء ؛ ومن تتبعها يرى ان الانسان عاش دهرًا طويلًا في حالة طبيعية تسمى « دور الافتراس » ، فكان يتجول حول المياه اسرابًا ، تجمعها حاجة الحضانة صغيراً ، وقصد الاستئناس كبيراً ، ويعتمد في رزقه على النبات الطبيعي وافتراس ضماف الحيوان في البر والبحر ، وتسوسه الارادة فقط ، ويقوده من بنيته اقوى الى حيث يكثر الرزق .

ثم ترقى الكثير من الانسان الى الحالة البدوية التي تسمى « دور الاقتناء » : فكان عشائر وقبائل ، يعتمد في رزقه على ادخار الفرائس الى حين الحاجة ، فصارت تجمعها حاجة التحفظ على المال والانعام ، وحماية المستودعات والمراعي والمياه من المزامحين ؛ ثم انتقل ، ولا يقال ترقى ، قسم كبير من الانسان الى المعيشة الحضرية ، فسكن القرى يستنبت الارض الخصبية في معاشه ، فاخصب ولكن في الشقاء ، ولعله استحق ذلك بفعله ، لانه تعدي قانون الخالق ، فانه خلقه حراً جوالاً يسير في الارض ينظر آلاء الله فسكن ، وسكن الى الجهل والى الذل ؛ وخلق الله الارض مباحة ، فاستأثر بها ،

فسلط الله عليه من يعصها منه ويأسره . وهذا القسم يعيش بلا جامعة ، تحكمه
اهواء اهل المدن ، وقانونه : ان يكون ظالما او مظلوما .

ثم ترقى قسم من الانسان الى التصرف اما في المادة وهم الصناع ، واما
في النظريات وهم اهل المعارف والعلوم . وهؤلاء المتصرفون هم سكان المدن
الذين هم وان سجنوا اجسامهم بين الجدران ، لكنهم اطلقوا عقولهم في
الاكوان ؛ وهم قد توسعوا في الرزق كما توسعوا في الحاجات ، ولكن اكثرهم
لم يهتدوا حتى الآن للطريق المثلى في سياسة الجمعيات الكبيرة . وهذا هو
سبب تنوع اشكال الحكومات وعدم استقرار امة على شكل مرضي عام . انما
كل الامم في تقلبات سياسية على سبيل التجريب ، وبحسب تغلب احزاب
الاجتهاد او رجال الاستبداد .

وتقرير شكل الحكومة هو اعظم واقدم مشكلة في البشر ، وهو المترك
الاكبر لافكار الباحثين ، والميدان الذي قد في البشر من لايجول فيه على
فيل من الفكر ، او على جمل من الجهل ، او على فرس من الفراسة ، او على
حمار من الحمق ، حتى جاء الزمن الاخير فجال فيه انسان الغرب جولة المغوار ،
المتطفي في التدقيق مراكب البخار . فقرر بعض قواعد اساسية في هذا
الباب تضافر عليها العقل والتجريب ، وحصحص فيها الحق اليقين ، فصارت
تعد من المقررات الاجماعية عند الامم المترقية ؛ ولا تعارض ذلك كون هذه
الامم لم تزل ايضا منقسمة الى احزاب سياسية يختلفون شيعا ، لان اختلافهم
هو في وجوه تطبيق تلك القواعد وفروعها على احوالهم الخصوصية .

وهذه القواعد التي قد صارت قضايا بديهية في الغرب ، لم تزل مجهولة ،
او غريبة ، او منقورا منها في الشرق ، لانها عند الاكثرين منهم لم تطرق سمعهم ،
وعند البعض لم تنل التفاتهم وتديقهم ، وعند آخرين لم تحز قبولا ، لانهم ذوو
غرض ، او مسرونة قلوبهم ، او في قلوبهم مرض .

واني اطرح لتدقيق المطالعين رؤوس مسائل بعض المباحث التي تتعلق
بها الحياة السياسية . وقبل ذلك اذكركم بانه قد سبق في تعريف الاستبداد
بانه : « هو الحكومة التي لا يوجد بينها وبين الامة رابطة معينة معلومة مصونة
بقانون نافذ الحكم » . كما استلقت نظرهم الى انه لا يوثق بوعد من يتولى السلطة
ايا كان ، ولا بعهدة ويمينه على مراعاة الدين ، والتقوى ، والحق ، والشرف ،
والعدالة ، ومقتضيات المصلحة العامة ؛ وامثال ذلك من القضايا الكلية المبهمة
التي تدور على لسان كل بر وفاجر . وما هي في الحقيقة الا كلام مبهم فارغ ،
لان المجرم لا يعدم تأويلا ، ولان من طبيعة القوة الاعتساف ، ولان القوة لا
تقابل الا بالقوة .

ثم فلنرجع للمباحث التي اريد طرحها لتدقيق المطالعين وهي :

١ - مبحث ماهي الامة اي الشعب :

هل هي ركام مخلوقات نامية ، او جمعية عبيد لملك متغلب وظيفتهم الطاعة
والانقياد ولو كرها ؛ ام هي جمع بينهم روابط دين او جنس او لغة ووطن ،
وحقوق مشتركة ، وجامعة سياسية اختيارية ، لكل فرد حق اشارة رأيه
فيها توفيقاً للقاعدة الاسلامية التي هي اسمي وابلغ قاعدة سياسية وهي : « كل

راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، ؟ .

٢ - مبحث ماهي الحكومة :

هل هي سلطة امتلاك فرد لجمع ، يتصرف في رقابهم ، ويتمتع باعمالهم ويفعل فيهم بارادته مايشاء ، ام هي وكالة تقام بارادة الامة لاجل ادارة شؤونها المشتركة العامة ؟ .

٣ - مبحث ماهي الحقوق العمومية :

هل هي حقوق آحاد الملوك ، ولكنها تضاف للامم مجازا ، ام بالعكس هي حقوق جموع الامم ، وتضاف للملوك مجازا ، ولهم عليها ولاية الامانة والنظارة على مثل الاراضي والمادن ، والانهر والسواحل ، والقلاع والمعابد ، والاساطيل والمعدات ، وولاية الحدود ، والحراسة على مثل الامن العام ، والعدل والنظام ، وحفظ وصيانة الدين والآداب ، والقوانين والمعاهدات ، والاتجار ، الى غير ذلك مما يحق لكل فرد من الامة ان يتمتع به وان يطمئن عليه ؟

٤ - مبحث التساوي في الحقوق :

هل للحكومة التصرف في الحقوق العامة المادية والادبية كما تشاء بذلا وحرمانا . ام تكون الحقوق محفوظة للجميع على التساوي والشيوع ، وتكون المفانم والمغانم العمومية موزعة على الفصائل والبلدان والصنوف والاديان بنسبة عادلة ، ويكون الافراد متساوون في حق الاستنصاف ؟

٥ - مبحث الحقوق الشخصية :

هل الحكومة تملك السيطرة على الاعمال والافكار . ام افراد الامة
احراراً في الفكر مطلقاً ، وفي الفعل مالم يخالف القانون الاجتماعي ، لانهم
ادري بمنافعهم الشخصية ، والحكومة لاتتداخل الا في الشؤون العمومية ؟

٦ - مبحث نوعية الحكومة :

هل الاصلح هي الملكية المطلقة من كل زمام ، ام الملكية المقيدة ، وماهي
القيود ؟ ام الرئاسة الانتخابية الدائمة مع الحياة او المؤقتة الى اجل ؟ . وهل
تنال الحاكمية بالوراثة ، او المهد ، او الغلبة ؟ . وهل يكون ذلك كما تشاء
الصدفة ، ام مع وجود شرائط الكفاءة ، وما هي تلك الشرائط ،
وكيف يصير تحقيق وجودها ، وكيف يراقب استمرارها ، وكيف
تستمر المراقبة عليها ؟ .

٧ - مبحث ماهي وظائف الحكومة :

هل هي ادارة شؤون الامة حسب الرأي والاجتهاد . ام تكون مقيدة
بقانون موافق لرغائب الامة وان خالف الاصلح ، واذا اختلفت الحكومة
مع الامة في اعتبار الصالح والمضر فهل على الحكومة ان تعتزل الوظيفة ؟

٨ - مبحث حقوق الحاكمية :

هل للحكومة ان تخصص نفسها لنفسها ما تشاء من مراتب العظمة ،
ورواتب المال . وتحابي من تريد بما تشاء من حقوق الامة واهوالها ؟ . ام

يكون التصرف في ذلك كله اعطاءً وتحديدًا ومنعاً منوطاً بالامة .

٩ - مبحث طاعة الامة للحكومة :

هل الارادة للامة وعلى الحكومة العمل ، ام الارادة للحكومة وعلى الامة الطاعة ، وهل للحكومة تكليف الامة طاعة عمياء بلا فهم ولا اقتناع ، ام عليها الاعتناء بوسائل التفهيم والاذعان لتتأني الطاعة باخلاص وامانة .

١٠ - مبحث توزيع التكاليفات :

هل يكون وضع الضرائب مفوضاً لرأي الحكومة ، ام الامة تقرر النفقات اللازمة وتعين موارد المال ، وترتب طرائق جبايته وحفظه ؟ .

١١ - مبحث اعداد المنعة :

هل يكون اعداد القوة بالتجنيد والتسليح استمداً للدفاع مفوضاً لارادة الحكومة اهمالاً ، او اقلالاً ، او اكثرأ ، او استمهالاً على قهر الامة ، ام يلزم ان يكون ذلك برأي الامة وتحت امرها ، بحيث تكون القوة منفذة رغبة الامة لارغبة الحكومة ؟ .

١٢ - مبحث المراقبة على الحكومة :

هل تكون الحكومة لاتسأل عما تفعل ، ام يكون الامة حق السيطرة عليها لان الشأن شأنها ، فلها ان تنيب عنها وكلاء لهم حق الاطلاع على كل شيء ، وتوجيه المسؤولية على اي كان ، ويكون ام وظائف النواب حفظ الحقوق الاساسية المقررة للامة على الحكومة ؟ .

١٣ - مبحث حفظ الامن العام :

هل يكون الشخص مكافأ بحراسة نفسه ومتعلقانه، ام تكون الحكومة مكافأ بحراسته مقيما ومسافرا حتى من بعض طوارىء الطبيعة بالحيلولة لا بالمجازاة والتعويض ؟ .

١٤ - مبحث حفظ السلطة في القانون :

هل يكون للحكومة ايقاع عمل اكراهي على الافراد برأيها اي بدون الوسائط القانونية ، ام تكون السلطة منحصرة في القانون ، الا في ظروف مخصوصة وموقنة ؟ .

١٥ - مبحث تأمين العدالة القضائية :

هل يكون العدل مآتراه الحكومة ، ام ما يراه القضاة المصون وجدانهم من كل مؤثر غير الشرع والحق ، ومن كل ضغط حتى ضغط الرأي العام ؟ .

١٦ - مبحث حفظ الدين والآداب :

هل يكون للحكومة ولو القضائية سلطة وسيطرة على العقائد والضمائر ، ام تقتصر وظيفتها في حفظ الجامعات الكبرى كالدين ، والجنسية ، واللغة ، والعادات ، والآداب العمومية ، على استعمال الحكمة ما اغنت عن الزواجر؛ ولا تتداخل الحكومة في امر الدين ما لم تنتهك حرمة؛ وهل السياسة الاسلامية سياسة دينية ، ام كان ذلك في مبدأ ظهور الاسلام ، كالادارة العرفية

عقب الفتح ؟ .

١٧ - مبحث تعيين الاعمال بقوانين :

هل يكون في الحكومة ، من الحاكم الى البوايس ، من يطلق له عنان التصرف برأيه وخبرته ، ام يلزم تعيين الوظائف ، كلياتها وجزئياتها ، بقوانين صريحة واضحة ، لا تسوغ مخالفتها ولو لمصلحة مهمة ، الا في حالات الخطر الكبير ؟ .

١٨ - مبحث كيف توضع القوانين :

هل يكون وضعها منوطاً برأي الحاكم الاكبر ، او رأي جماعة ينتخبهم لذلك . ام يضع القوانين جمع منتخب من قبل الكافة ليكونوا عارفين حتماً بحاجات قومهم وما يلائم طبائعهم ومواقفهم وصوالجهم ، ويكون حكمه عاماً او مختلفاً على حسب تخالف العناصر والطبائع وتغير الموجبات والازمان ؟ .

١٩ - مبحث ماهو القانون وقوته :

هل القانون هو احكام يمتج بها القوي على الضعيف ، ام هو احكام مترعة من روابط الناس بعضهم ببعض ، وملاحظ فيها طبائع اكثرية الافراد ، ومن نصوص خالية من الابهام والتعقيد وحكما شامل كل الطبقات ، ولها سلطان نافذ قاهر مضمون من مؤثرات الاغراض ، والشفاعة ، والشفقة ، وبذلك يكون القانون هو القانون الطبيعي للامة فيكون محترماً عند الكافة ، مضمون الحماية من قبل كل افراد الامة ؟ .

٢٠ - مبحث توزيع الاعمال والوظائف:

هل يكون الحظ في ذلك مخصوصاً بأقارب الحاكم وعشيرته ومقربيه ، ام توزع كتوزيع الحقوق العامة على كافة القبائل والفصائل ، ولو مناوئة مع ملاحظات الاهمية والعدد ، بحيث يكون رجال الحكومة انموذجاً من الامة ، او هم الامة مصفورة . وعلى الحكومة ايجاد الكفاءة والاعداد ولو بالتعليم الاجباري ؟ .

٢١ - مبحث التفريق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم :

هل يجمع بين سلطتين او ثلاث في شخص واحد . ام تخصص كل وظيفة من السياسة والدين والتعليم بمن يقوم بها باتقان ، ولا اتقان الا بالاختصاص ، وفي الاختصاص ، كما جاء في الحكمة القرآنية : « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » ، ولذلك لا يجوز الجمع منعا لاستفحال السلطة .

٢٢ - مبحث الترقى في العلوم والمعارف :

هل يترك للحكومة صلاحية الضبط على العقول كي لا يقوى نفوذ الامة عليها ، ام تحمل على توسيع المعارف بجعل التعليم الابتدائي عمومياً بالتشويق او الاجبار ، ويجعل الكفالي منه سهلاً للمتناول . وجعل التعليم والتعلم حراً مطلقاً ؟ .

٢٣ - مبحث التوسيع في الزراعة والصنائع والتجارة :

هل يترك ذلك للنشاط المفقود في الامة . ام تلزم الحكومة بالاجتهاد

في تسهيل مضاهاة الامم السائرة ، لاسيما المزاحمة والمجاورة ، كيلا تهلك
الامة بالحاجة لغيرها او تضعف بالفقر .

٢٤ - مبحث السمي في العمران :

هل يترك ذلك لاهال الحكومة المميت اعزة نفس السكان ، او
لانها كها فيه اسرافاً وتبذيراً ؛ ام تحمل على اتباع الاعتدال المنتاسب مع
الثروة العمومية .

٢٥ - مبحث السمي في رفع الاستبداد :

هل ينتظر ذلك من الحكومة ذاتها . ام نوال الحرية ورفع الاستبداد
رفماً لا يترك مجالاً لعودته من وظيفة عقلاء الامة وسراتها ؛ ؟ .



هذه خمسة وعشرون مبحثاً ، كل منها يحتاج الى تدقيق عميق ، وتفصيل
طويل ، وتطبيق على الاحوال والمقتضيات الخصوصية . وقد ذكرت هذه
المباحث تذكراً للكتاب ذوي الالباب وتنشيطاً للنجباء على الخوض فيها
بترتيب ، اتباعاً لحكمة اتيان البيوت من ابوابها . واني اقتصر على بعض
الكلام فيما يتعلق بالمبحث الاخير منها فقط ، اعني مبحث السمي في رفع
الاستبداد فاقول :

- ١ - الامة التي لا يشعر كلها او اكثرها بالام الاستبداد لاتستحق الحرية .
- ٢ - الاستبداد لايقاوم بالشدّة انما يقاوم باللين والتدرج .

٣ - يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد .

هذه قواعد رفع الاستبداد وهي قواعد تبعد آمال الاسراء ، وتسر المستبدين ، لان ظاهرها يؤمنهم على استبدالهم . ولهذا اذكر المستبدين بما اندرهم به الفياري المشهور حيث قال : « لا يفرحن المستبد بعظيم قوته ومزيد احتياظه فكم من جبار عنيد جند له مظلوم صغير ، ، واني اقول : كم من جبار قهار اخذه الله اخذ عزيز منتقم .

مبنى قاعدة كون الامة التي لا يشعر اكثرها بالام الاستبداد

لا تستحق الحرية هو :

ان الامة اذا ضربت عليها الذلة والمسكنة وتوالت على ذلك القرون والبطون ، تصير تلك الامة سافلة الطباع حسبما سبق تفصيله في الابحاث السافلة ، حتى انها تصير كالبهائم ، او دون البهائم ، ، لا تسأل عن الحرية ، ولا تلتمس العدالة ، ولا تعرف للاستقلال قيمة ، او للنظام مزية ، ولا ترى لها في الحياة وظيفة غير التابعة للغالب عليها ، احسن او اساء على حد سواء ؛ وقد تنقم على المستبد نادرا ولكن طلبا للانتقام من شخصه لاطلبا للخلاص من الاستبداد ، فلا تستفيد شيئا انما تستبدل مرضا بمرض كغص بصداع .

وقد تقاوم المستبد بسوق مستبد آخر تتوسم فيه انه اقوى شوكة من المستبد الاول ؛ فاذا نجحت لا يغسل هذا السائق يديه الا بماء الاستبداد فلا تستفيد ايضاً شيئاً ، انما تستبدل مرضاً مزمناً بمرض حاد ؛ وربما تنال الحرية

عفواً فكذلك لا تستفيد منها شيئاً لأنها لا تعرف طعمها فلا تهتم بحفظها ، فلا تلبث الحرية أن تنقلب الى فوضى ، وهي الى استبداد مشوش اشد وطأة كالمرض اذا انعكس . ولهذا قرر الحكماء ان الحرية التي تنفع الامة هي التي تحصل عليها بمد الاستعداد لقبولها ، واما التي تحصل على اثر ثورة حمقاء فقدما تفيد شيئاً ، لان الثورة غالباً تكنفي بقطع شجرة الاستبداد ولا تقتلع جذورها ، فلا تلبث ان تذب وتتمو وتعود اقوى ، مما كانت اولاً .

فاذا وجد في الامة الميتة من تدفعه شهامته للاخذ بيدها والنهوض بها فعليه اولاً : ان يث فيها الحياة وهو العلم ، اي عليها بان حالتها سيئة وانما بالامكان تبديلها بخير منها ، فاذا هي علمت يبتدأ فيها الشعور بالام الاستبداد ، ثم يترقى هذا الشعور بطبعه من الآحاد الى العشرات ، الى الـ . . . ، حتى يشمل اكثر الامة وينتهي بالتحمس ويبلغ بلسان حالها الى منزلة قول الحكيم المعري :

اذا لم تقم بالعدل فينا حكومة فنحن على تغييرها قراء

وهكذا ينقذ فكر الامة في واد ظاهر الحكمة يسير كالسيل ، لا يرجع حتى يبلغ منتهاه .

ثم ان الامم الميتة لا يندر فيها ذوو الشهامة ، انما الاسف ان يندر فيها من يهتدي في اول نشأته الى الطريق الذي به يحصل على المكانة التي تمكنه في مستقبله من نفوذ رأيه في قومه . واني انبه فكر الناشئة العزيزة ان من يرى

منهم في نفسه استعداداً للمجد الحقيقي فليحرص على الوصايا الآتية البيان :

١ - ان يجهد في ترقية معارفه مطلقاً لاسيما في العلوم النافعة الاجتماعية كالحقوق والسياسة والاقتصاد والفلسفة العقلية ، وتاريخ قومه الجغرافي والطبيعي والسياسي ، والادارة الداخلية ، والادارة الحربية ، فيكتسب من اصول وفروع هذه الفنون ما يمكنه احرازه بالتلقي وان تمرر بالمطالعة مع التدقيق .

٢ - ان يتقن احد العلوم التي تكسبه في قومه موقماً محترماً وعلمياً مخصوصاً كعلم الدين والحقوق او الانشاء او الطب .

٣ - ان يحافظ على آداب وعادات قومه غاية المحافظة ولو ان فيها بعض اشياء سخيفة .

٤ - ان يقلل اختلاطه مع الناس حتى مع رفاقه في المدرسة وذلك حفظاً للوقار وتحفظاً من الارتباط القوي مع احد كيلا يسقط تبعاً لسقوط صاحب له .

٥ - ان يتجنب كلياً مصاحبة المقوت عند الناس لاسيما الحكام ولو كان ذلك المقت بغير حق .

٦ - ان يجهد ما يمكنه في كتم مزيته العلمية على الذين هم دونه في ذلك العلم لاجل ان يأمن غوائل حسدهم ، انما عليه ان يظهر مزيته لبعض من هم فوقه بدرجات كثيرة .

٧ - ان يتخير له بعض من ينتمي اليه من الطبقة العليا ، بشرط : ان لا يكثر التردد عليه ، ولا يشاركه في شؤونه ، ولا يظهر له الحاجة ، ويتكتم في نسبه اليه .

٨ - ان يحرص على الافلال من بيان آرائه والا يؤخذ عليه تبعة رأي يراه او خبر يرويه .

٩ - ان يحرص على ان يُعرف بحسن الاخلاق لاسيما الصدق والامانة والثبات على المبادئ .

١٠ - ان يظهر الشفقة على الضعفاء والغيرة على الدين والملاقة بالوطن .

١١ - ان يتباعد ما يمكنه من مقاربة المستبد واعوانه الا بمقدار ما يأمن به فظائع شرهم اذا كان معرضا لذلك .

فمن يبلغ سن الثلاثين فما فوق حازرا على الصفات المذكورة ، يكون قد اعد نفسه على اكمل وجه لاحراز ثقة قومه عندما يريد في برهة قليلة ، وبهذه الثقة يفعل ما لا تقوى عليه الجيوش والكنوز . وما ينقصه من هذه الصفات ينقص من مكانته ، ولكن قد يستغني بمزيد كمال بعضها عن فقدان بعضها الآخر او نقصه . كما ان الصفات الاخلاقية قد تكفي في بعض الظروف عن الصفات العلمية كلها ولا عكس . واذا كان المتصدي الارشاد السياسي فاقد الثقة فقد اتانا اصيلاً او طارئاً ؛ يمكنه ان يستعمل غيره بمن ينقصه الجسارة والهمة والصفات العلمية .

والخلاصة ان الراغب في نهضة قومه ، عليه ان يهيئ نفسه ويزن استعداده
ثم يزم متوكلا على الله في خلق النجاح .

* * *

ومبنى قاعدة ان الاستبداد لا يقاوم بالشدة ، انما يقاوم بالحكمة والتدريج هو :

ان الوسيلة الوحيدة الفعالة لقطع دابر الاستبداد هي ترقى الامة في الادراك
والاحساس ، وهذا لا يتأتى الا بالتعليم والتحميس . ثم ان اقتناع الفكر
العام واذعانه الى غير مألوفه ، لا يتأتى الا في زمن طويل ، لان العوام مها
ترقوا في الادراك لا يسمحون باستبدال القشعريرة بالعافية الا بعد التروي
المديد ، وربما كانوا معذورين في عدم الوثوق والمسارة لانهم الفوا ان
لا يتوقعوا من الرؤساء والدعاة الا الغش والخداع غالبا . ولهذا كثيرا ما
يجب الاسراء المستبد الاعظم اذا كان يقهر معهم بالسوية الرؤساء والاشراف ،
وكثيرا ما ينتقم الاسراء من الاعوان فقط ولا يمسون المستبد بسوء ، لانهم
يرون ظالمهم مباشرة هم الاعوان دون المستبد ، وكم احرقوا من عاصمة لاجل
محض التشفي باضرار أولئك الاعوان .

ثم ان الاستبداد محفوف بانواع القوات التي فيها قوة الارهاب بالمعظمة
وقوة الجند ، لاسيما اذا كان الجند غريب الجنس ، وقوة المال ، وقوة الالفة
على القسوة ، وقوة رجال الدين ، وقوة اهل الثروات وقوة الانصار من
الاجانب ؛ فهذه القوات تجعل الاستبداد كالسيف لا يقابل بمصا الفكر العام

الذي هو في اول نشأته يكون اشبه بغوغاء ، ومن طبع الفكر العام انه اذا فار في سنة يغور في سنة ، واذا فار في يوم يغور في يوم ، بناء عليه يلزم لمقاومة تلك القوات الهائلة مقابلتها بما يفعله الثبات والعناد المصحوبين بالحزم والاقدام .

الاستبداد لا ينبغي ان يقاوم بالعنف ، كي لاتكون فتنة تحصد الناس حصدا ؛ نعم ، الاستبداد قد يبلغ من الشدة درجة تنفجر عندها الفتنة انفجارا طبيعيا ، فانما كان في الامة عقلاء يتباعدون عنها ابتداء ، حتى اذا سكنت ثورتها نوعاً وقضت وظيفتها في حصد المناققين ، حينئذ يستعملون الحكمة في توجيه الافكار نحو تأسيس العدالة ، وخير ما تؤسس يكون باقامة حكومة لا عهد لرجالها بالاستبداد ولا علاقة لهم بالفتنة .

العوام لا يثور غضبهم على المستبد غالباً الا عقب احوال مخصوصة مهيجة فورية . منها :

١ - عقب مشهد دموي مؤلم يوقمه المستبد على مظلوم يريد الانتقام لناموسه .

٢ - عقب حرب يخرج منها المستبد مغلوباً ، ولا يتمكن من الصاق عار الغلب بخيانة القواد .

٣ - عقب تظاهر المستبد باهانة الدين اهانة مصحوبة باستهزاء يستلزم حدة العوام .

٤ - عقب تضيق شديد عام مقاضاة مال كثير لا يتيسر اعطاؤه حتى على

اواسط الناس .

٥ - في حالة مجاعة او مصيبة عامة لا يرى الناس فيها مواساة ظاهرة من المستبد .

٦ - عقب عمل المستبد يستفز الغضب الفوري ، كتعرضه لناموس العرض ، او حرمة الجنائز في الشرق ، وتحقيره القانون او الشرف الموروث في الغرب .

٧ - عقب حادث تضيق يوجب تظاهر قسم كبير من النساء في الاستجارة والاستنصار .

٨ - عقب ظهور موالاة شديدة من المستبد لمن تعتبره الامة عدوا لشرفها . الى غير ذلك من الامور الماثلة لهذه الاحوال التي عندها يمجج الناس في الشوارع والساحات ، وتعليق اصواتهم الفضاء ، وترتفع فتبلغ عنان السماء ، ينادون : الحق الحق ، الانتصار للحق ، الموت او بلوغ الحق .

المستبد مها كان غبيا لانتخني عليه تلك المزالق ، ومها كان عتيا لا يفقل عن اتقائها ؛ كما ان هذه الامور يعرفها اعوانه ووزرائه .

فاذا وجد منهم بعض يريدون له التهلكة يهرونه على الوقوع في احداها ، ويلصقونها به خلافا لعاداتهم في ابعادها عنه بالتصويه على الناس . ولهذا يقال ان رئيس وزراء المستبد او رئيس قواده ، او رئيس الدين عنده ، هم اقدر الناس على الايقاع به ، وهو يداريهم تحذرا من ذلك ، واذا اراد اسقاط

احدهم فلا يوقمه الا بفتة .

لمثيري الخواطر على الاستبداد طرائق شتى يسلكونها بالسر والبطء ،
يستقرون تحت ستار الدين ، فيستنبطون غابة الثورة من بذرة او بذورات
يسقونها بدموعهم في الخلوات . وكم يلهون المستبد بسوقه الى الاشتغال
بالفسوق والشهوات ، وكم يفررونه برضاء الامة عنه ، ويجسرونه على مزيد
التشديد ؛ وكم يحملونه على اساءة التدبير ، وبكتمونه الرشد ، وكم يشوشون
فكره برباكه مع جيرانه واقرائه . يفعلون ذلك وامثاله لاجل غاية واحدة ،
هي ابعاده عن الانتباه الى سد الطريق التي فيها يسلكون . اما اعوانه ، فلا
وسيلة لاغفالهم عن ايقاظه غير تحريك اطعامهم المالمية مع تركهم ينهون
ماشأوا وان ينهوا .



ومبني قاعدة انه يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به

الاستبداد هو : ان معرفة الغاية شرط طبيعي للاقدام على كل عمل ، كما ان
معرفة الغاية لا تفيد شيئاً اذا جهل الطريق الموصل اليها ؛ والمعرفة الاجمالية
في هذا الباب لا تكفي مطلقاً ، بل لابد من تعيين المطلب والخطوة تمييزاً واضحاً
موافقاً لرأي السلك ، او لرأي الاكثرية التي هي فوق الثلاثة ارباع عدداً او قوة
بأس ، والا فلا يتم الامر ؛ حيث اذا كانت الغاية مهمة نوعاً يكون الاقدام
ناقصاً نوعاً ، واذا كانت مجهولة بالكلية عند قسم من الناس او مخالفة لرأيهم .

فهؤلاء ينضمون الى المستبد فتكون فتنة شعواء ؛ و اذا كانوا يبلغون مقدار الثلث فقط ، تكون حينئذ الغلبة في جانب المستبد مطلقاً .

ثم اذا كانت الغاية مبهمة ولم يكن السير في سبيل معروف ، ويوشك ان يقع الخلاف في اثناء الطريق فيفسد العمل ايضاً وينقلب الى انتقام وقتن ، ولذلك يجب تبيين الغاية بصراحة و اخلاص و اشهارها بين الكافة ، و السعي في اقناعهم و استحصال رضائهم بها ما يمكن ذلك ، بل الاولى حمل العوام على النداء بها و طلبها من عند انفسهم . وهذا سبب عدم نجاح الامام علي و من و ليه من ائمة آل البيت رضي الله عنهم ، و لعل ذلك كان منهم لا عن غفلة ، بل عن مقتضى ذلك الزمان من صعوبة المواصلات و فقدان البوستات المنتظمة و النشريات المطوعة اذ ذاك .

و المراد ان من الضروري تقرير شكل الحكومة التي يراد و يمكن ان يستبدل بها الاستبداد ، و ليس هذا بالامر الهين الذي تكفيه فكرة ساعات ، او فطنة آحاد ، و ايس هو باسهل من ترتيب المقاومة و المغالبة . و هذا الاستعداد النظري لا يجوز ان يكون مقصوراً على الخواص ، بل لابد من تعميمه و على حسب الامكان ليكون بعيداً عن الغايات و معضداً بقبول الرأي العام .



و خلاصة البحث انه يلزم اولاً تنبيه حس الامة بالام الاستبداد ، ثم يلزم حملها على البحث في القواعد الاساسية السياسية المناسبة لها بحيث يشغل

ذلك افكار كل طبقاتها ، والاولى ان يبقى ذلك تحت مخض العقول سنين بل عشرات السنين حتى ينضج تماما ، وحتى يحصل ظهور التلهف الحقيقي على نوال الحرية في الطبقات العليا ، والتي في الطبقات السفلى . والحذر كل الحذر من ان يشعر المستبد بالخطر ، فيأخذ بالتحذر الشديد والتنكيل بالمجاهدين ، فيكثر الضجيج ، فيزيغ المستبد ويتكالب ، فحينئذ اما تقنم الفرصة دولة اخرى فتستولي على البلاد ، وتجدد الاسر على العباد بقليل من التعب ، فتدخل الامة في دور آخر من الرق المنحوس ، وهذا نصيب اكثر الامم الشرقية في القرون الاخيرة .

واما ان يساعد الحظ بهدم وجود طامع اجني ، وتكون الامة قد تأهلت للقيام بان تحكم نفسها بنفسها ، وفي هذه الحال يمكن لعلاء الامة ان يكلفوا المستبد ذاته لترك اصول الاستبداد ، واتباع القانون الاساسي الذي تطلبه الامة . والمستبد الخائر القوي لايسعه عند ذلك الا الاجابة طرعا ، وهذا افضل ما يصادف . وان اصر المستبد على القوة ، قضوا بالزوال على دولته ، واصبح كل منهم راع وكل منهم مسؤول عن رعيته ، واضحو آمنين ، لا يطمع فيهم طامع ، ولا يغلبون عن قلة ، كما هو شأن كل الامم التي تحيا حياة كاملة حقيقية . بناء عليه فليتبصر العقلاء ، وليتق الله المغررون ، وليعلم ان الامر صعب ، ولكن تصور الصعوبة لا يستلزم القنوط ، بل يثير همه الرجل الاثم .

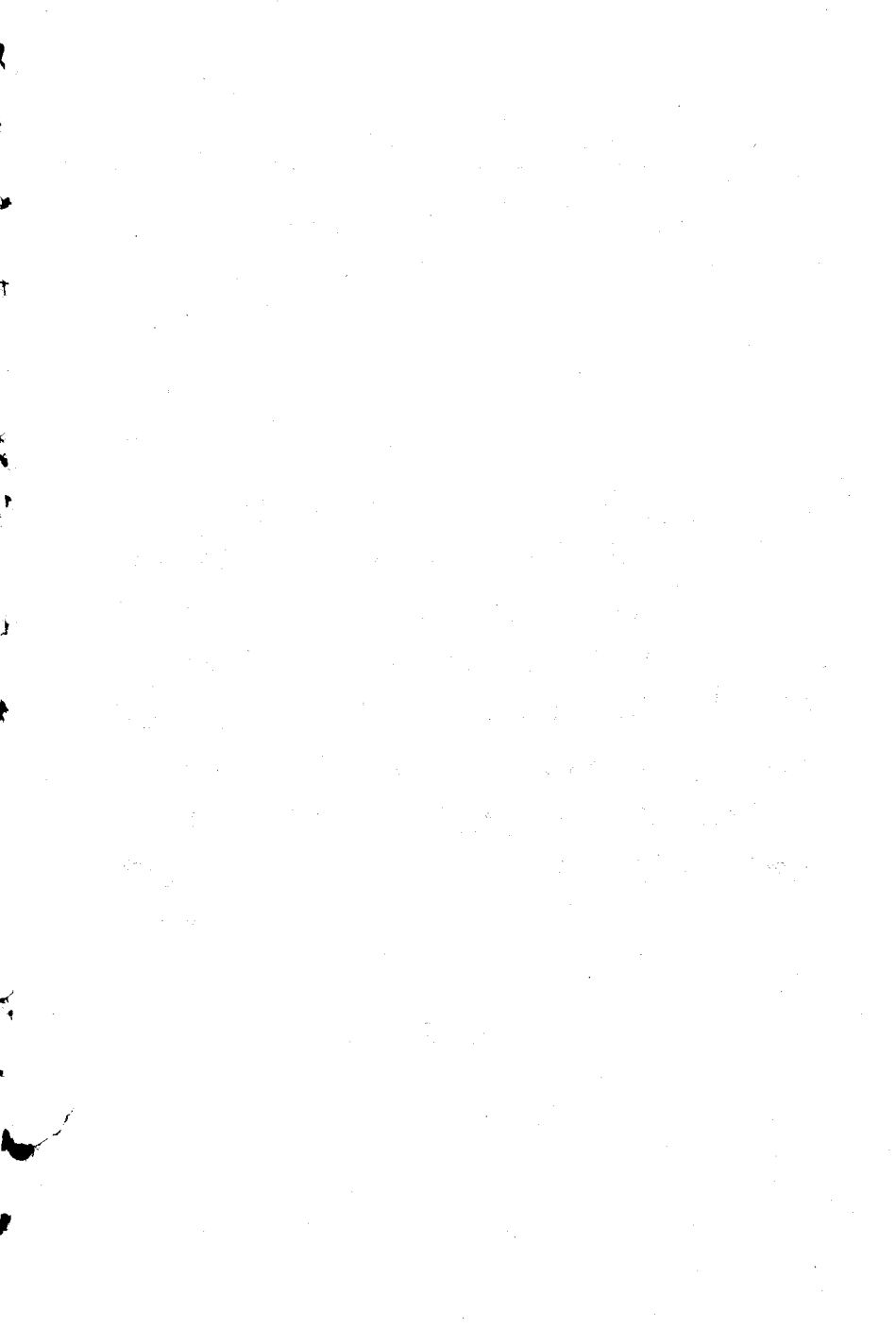
ونتيجة البحث ، ان الله جلت حكمته قد جعل الامم مسؤولة عن اعمال

من تحكّمه عليها ، وهذا حق . فاذا لم تحسن امة سياسة نفسها اذلبها الله
لامة اخرى تحكّمها ، كما تفعل الشرائع باقامة القيم على القاصر او السفهيه ،
وهذه حكمة . ومتى بلغت امة رشدها ، وعرفت للحرية قدرها ، استرجعت
عزها ، وهذا عدل .

وهكذا لا يظلم ربك احدا ، انما هو الانسان يظلم نفسه ، كما لا يذل الله
قط امة عن قلة ، انما هو الجهل يسبب كل علة .

واني اختم كتابي هذا بخاتمة بشرى ، وذلك ان بواسق العلم وما بلغ
اليه ، تدل على ان يوم الله قريب . ذلك اليوم الذي يقبل فيه التفاوت
في العلم وما يفيد من القوة ، وعندئذ تتكافأ القوات بين البشر ، فتتحل
السلطة ، ويرتفع التغاب ، فيسود بين الناس العدل والتوادر ، فيعيشون
بشرا لاشعوبا ، وشركات لا دولا . وحينئذ يعملون مامعنى الحياة الطيبة :
هل هي حياة الجسم وحصر الهمة في خدمته ، ام هي حياة الروح وغداؤها
الفضيلة ؟ ويومئذ يتسنى للانسان ان يعيش كأنه عالم مستقل خالد ؛ كأنه نجم
مختص في شأنه ، مشترك في النظام كأنه ملك وظيفته تنفيذ اوامر الرحمن
المهمة للوجدان .

تم الكتاب



محتويات الكتاب

صفحة	
١	كلمة الناشر
٢	حياة المؤلف
٨	كلمة المؤلف
١٢	المقدمة
١٧	ماهو الاستبداد
٢٧	الاستبداد والدين
٤٧	الاستبداد والعلم
٥٧	الاستبداد والمجد
٧٥	الاستبداد والمال
٩٥	الاستبداد والاخلاق
١١٥	الاستبداد والتربية
١٣١	الاستبداد والترقي
١٦٥	الاستبداد والتخلص منه

تقديم

وقعت بعض الأخطاء المطبعية يرجى تصحيحها :

صواب	خطأ	سطر	صحيفة
يحتك	يتحكك	٣	١٢
متلاصقين متراكمين	متلاصقون متراكون	١٢	٢١
متفرقين	متفرقون	١٤	٢١
إلا	إلى	١٠	٥٨
خدمات	خدما	٧	٦١
الترف	الشرف	٤	٦٥
انفسهم	انقسم	١٧	٧٣
الحق	الحق	٦	١٣٦
	اصل الآية الصحيح :	٥	٤٥

« الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن »

كلمة الناشر

ينشر هذا الكتاب للمرة الاولى على العالم العربي منقحاً ومزيداً بقلم المؤلف ، وهو يختلف كثيراً عن النسخة المطبوعة والمتداولة حتى اليوم . وجدت هذه النسخة المنقحة بين اوراقه حيث قام نجله المرحوم الدكتور اسعد الكواكي باعتباره اقدر افراد الاسرة الكواكبية على قراءة خط والده بتوضيح ماغضض من معالمها وكتابتها وبذل في سبيل ذلك جهوداً عظيمة ووقتاً طويلاً .

ويهمني ان الفت النظر الى انه قد يجد القارىء في بعض صفحات الكتاب آراء للمؤلف لاتتفق مع الانظمة والافكار السائدة في ايامنا هذه . فيجب ان نلاحظ ان الكتاب الف في عهد السلطان عبد الحميد حيث كانت انظمة الدولة وجميع اجزتها مهياة وموجهة لاقرار سلطان الحاكم الظالم المستبد ، فكانت ثورة المؤلف منصبه على كامل جهاز الدولة العثمانية وانظمتها ، وعلى الاستعمار العربي الذي كان في اوج طغيانه .

واتي بنشر هذا الكتاب ارجو ان اكون قد اديت الامانة للعلم والتاريخ وحقت لجدي رحمه الله احدي رغباته في خدمة الاسلام والعروبة والله من وراء القصد .

حلب عام ١٩٥٧

عبد الرحمن الكواكي

دكتور في الحقوق